ملك وامرأة وإله

نوال السعداوي

ملك وامرأة وإله

تأليف
نوال السعداوي

هنـــداوي

ملك وامرأة وإله

نوال السعداوي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٦ ٢٣٠٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيدة الدكتورة نوال السعداوي.

المحتويات

ثمن الكتابة	٧
الفصل الأول: الكباري مع السلطة والمجتمع	١٣
جوهر الأخلاق هو القضية	١٥
الكباري مع السُّلطة	١٩
الاحتقان الطائفي	٢٣
القوى السياسية وقضية المرأة	٢٧
الفلاح بوله أحمر	٣١
فضيلة الركوع	٣٥
طيور الظَّلام	٣٩
هل أنتخب رئيسًا لا يمتلك الشجاعة؟	٤٣
هل ترى العين نفسها؟	٤٥
إثارة الجدل وخطاب رئيس الدولة	٤٧
تحت غطاء الصندوق ... العدالة عمياء	٥١
بعصا موسى السحرية	٥٥
العقل الجمعي والموروث المجتمعي	٥٩
التوءم ... بوش وابن لادن	٦٣
الفصل الثاني: تحرير المرأة تحرير وطن	٦٧
أيتها المرأة المصرية أفيقي	٦٩

انطقوا الصدق، فالتاريخ لن يرحمكم	٧٣
الدستور المأكول وقلادات النيل	٧٧
العضلات السياسية في مصر وانسحاب المرأة	٧٩
النساء والشعب بين المُطلَق والنِّسبي	٨٣
كرامة المرأة كرامة وطن	٨٧
تحرير المرأة تحرير وطن	٩١
الختان والإيمان	٩٥
ماذا يحدث للنساء باسم الإسلام؟	٩٧
الفصل الثالث: سقوط الأب ونزاهة القاضي	١٠١
الأدب والثورة في جنوب أفريقيا	١٠٣
امرأة ليس لها رأس	١٠٧
سقوط الأب ونزاهة القاضي	١١١
من وراء ظهرها	١١٣
معالي الوزير ساقط قيد	١١٧
اغضبي ثوري ولا تستكيني	١٢٣
لم يعد يراها	١٢٥
لوركا ... عُرس الدَّم القادم	١٢٩
حركة الإبداع الحر في مصر والعالم	١٣١

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجيد كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألف صفحة، ولا أستطيع كتابة مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحية، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس.

تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور.

لكن عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كل صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أي مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدتْ وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتْها الشمس وأغرقتها الأمطار في الجنوب والشمال، أصبحتْ أقلَّ حُمرة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفة فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثقلها في الأزقة حيث الحفر والمطبات، مليئة بالكتب وملابسها وأوراقها، مقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثي كان مسجلًا في أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصلحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابط الشرطة بمطار القاهرة في اسمها الثلاثي، يتأمل صورتها في جواز سفرها، يبتسم في وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدقُّ بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها بِرقَّة ورثها عن أمه، يناولها كرسيًّا لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي أوامر لازم أنفذها. وإن كان عضوًا بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يكشر عن أنيابه مبرطمًا بصوتٍ غليظ، ويحجزها مع حقيبتها في غرفة الحجر الصحي؛ حيث تلتقي بأنواعٍ مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجُذام وإنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيرًا في الحي الراقي بجاردن سيتي، اكتسب ثقافة نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تدرك أفكارًا مدهشة في الرءوس التي تغوص فيها، يأتي سكان الحي الراقي إلى محله الأنيق بشارع التنهدات، نساءٌ ورجالٌ من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطوَّر عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت في الفضاء ذرات، تناثرت وتجمَّع بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية في الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضًا، البوابون والطباخون في قصور الباشوات القدامى والجدد في جاردن سيتي، منهم الحاج منصور الشهير باسم طباخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدي والطعام الفاخر الذي يبتلعه سرًّا.

وبينما هو يترك رأسه بين يدي الكوافير سوسو، يحكي الحكايات القديمة عن المماليك والأتراك، كيف عاشوا في الأناضول، ولا بد أن يذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذي حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرض فوق قرن، وإن تعب من ثقلها حرك رأسه ونقلها إلى قرنه الثاني.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو، أمَّال الزلازل والبراكين والبرق والرعد بييجوا منين؟

– منين يا حاج منصور؟

– لما الثور يحرك الأرض على راسه من قرن لقرن يحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.

يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو.

– الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.

– جاليليو خواجة يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.

– لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.

– سامعك يا خويا.

– جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكتر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعايشة في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.

– أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟

– أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.

– مين قال لك الكلام ده؟

– الباشا اللي باحلق له شنبه ودقنه.

– الباشا بنفسه يا سوسو؟

– أيوة يا حاج منصور.

– لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!

– لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

– مش معقول يا سوسو.

– مثلًا وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بيجري بسرعة.
– لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟
– إيه يا حاج!
وينفجر الكوافير والحاج منصور في الضحك.

تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحجر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيبة، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.
– أي عيد؟

الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليشموا البصل والرنجة والفسيخ، يتمشون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.

لكن يظل الفسيخ اللذيذ من نبروه، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.

كنت أحب الفسيخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن ذكَّرتها به تمطِّ شفتها السفلى وتنهمك في الكتابة.
– كم عمرك؟
– مش فاكرة.
– مش معقولة انتي.
– انتي اللي مش معقولة.
– ازاي؟
– إيه يهمك من عمري؟

– عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.
– ليه؟
– مش عارفة.

(انتهت المقدمة)[١]

نوال السعداوي
القاهرة
٢٢ مارس ٢٠١٧

[١] تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

الفصل الأول

الكباري مع السلطة والمجتمع

جوهر الأخلاق هو القضية

ضجة كبيرة تحدث في بلادنا حول مظاهر السياسة والدين والوطنية والأخلاق، ترتفع الورقة فوق الضمير الإنساني والصدق والشرف الحقيقي، قد يحمل الإنسان جواز سفر واحدًا مختومًا بالدولة ورأس النسر، لكنه في الوقت نفسه يعمل ضد مصالح وطنه، وينهب أموال الشعب، أو يظلم خادمه، أو زوجته في البيت، أو مرءوسيه في العمل، ويظل رغم كل ذلك يحظى بلقب زعيم وطني شريف نبيل!

وقد يحمل الإنسان أكثر من ورقة سفر، أو جواز مرور بين الحدود، ومع ذلك يظل مخلصًا لكل المبادئ الإنسانية العليا في بلده، وفي كل بلاد العالم، يدافع عن الحرية والعدالة والكرامة في أي مكان تُنتَهك فيه الحرية أو العدالة أو الكرامة.

تطور مفهوم الوطن مع تطور الأنظمة العبودية، تلك التي كانت تربط العبيد والماشية والنساء بالأرض، كانت الأرض ومُلَّاكها يسحقون العبيد والنساء دون أن يتمرد العبيد والنساء، دون محاولة للفرار، خوفًا من عقاب الآلهة الأسياد، والاتهام بخيانة الوطن أو خيانة الزوج أو القبيلة، أو الكفر بالإله والثوابت الدينية، كان مالك الأرض هو «اللورد الإله» يملك الحياة والموت، يمنح أفراد الشعب من العبيد والنساء ألقاب الشرف والوطنية والأمانة والعلم والأدب، كان السيد الإله يظلم ويفسق ويخون الوطن والشعب وزوجته ولا يعترف بأولاده غير الشرعيين، مع ذلك لا يملك أحد محاكمته أو عقابه، هو الذي يعاقب ويحاكم من يشاء، يمنح أوسمة الوطنية والشرف أو جوائز الدولة في العلم والأدب لمن يدين له بالولاء، كانت أرفع جائزة تحمل اسم الإله الإمبراطور الملك، وأخيرًا جائزة الرئيس مبارك.

يدور الحوار في مصر هذه الأيام حول: هل يحق للمرأة أن ترأس الدولة أم لا؟ يقول أحد رجال الدين إنه على صلة مباشرة بالإله، وإذا فرض الإله الحجاب على المرأة؛ لأن رأسها

عورة، فكيف له أن يُبيح لها رئاسة دولة؟ وإذا كان قد فرض عليها الحيض أو الطمث والحمل والولادة والنفاس، فكيف لها أن ترأس الدولة؟ وإذا كان قد أعطى زوجها أو بعلها الحق المطلق في احتباسها أو تطليقها والزواج عليها غيابيًّا بثلاث نساء، فكيف تقود المرأة الرجال وترأس الدولة؟ إذا خضعت المرأة لحكم رجلٍ واحدٍ في البيت هل تحكم الملايين في الدولة؟ أحد الرجال المتشدقين بهذا الكلام ضد المرأة المصرية رأيته في أحد المؤتمرات الدولية جالسًا مؤدبًا أمام هيلاري كلينتون، عيناه مُنكستان، ساقاه مضمومتان في أدب العذراوات، رأيت الكثير من الحكَّام العرب (ومنهم حُكَّام مصر) يجلسون متغطرسين أمام شعوبهم، يضع الواحد منهم الساق فوق الساق في استعلاء، وما إن يسافروا إلى واشنطن حتى يُنزل الواحد منهم ساقه عن الساق الأخرى، يجلس مؤدبًا مضموم الساقين واليدين، في حين يضع بوش أو أوباما ساقه فوق الساق الأخرى في كبرياء.

لماذا هذا الصَّخب حول جواز السفر الواحد أو الاثنين أو أكثر؟ ما علاقة جواز السفر بالإخلاص للوطن؟ ما علاقة الورقة بالإخلاص الزوجي؟ عرفت رجالًا ونساءً ليس لديهم ورقة، ومع ذلك يُخلص كلٌّ منهم لشريك أو شريكة الحياة أكثر من الحاملين لورقة وأوراق، بالمثل رأيت رجالًا ونساءً لا يحملون جواز سفر عربيًّا أو مصريًّا، ومع ذلك هم أكثر إخلاصًا واهتمامًا بالقضايا العربية، أو القضية الفلسطينية (مثلًا) عن الكثيرين من العرب والمصريين، لا تعلو الورقة على الضمير الحي، لا يحتاج الضمير الحي إلى ورقة، لكن ترتفع الورقة على كل القيم الإنسانية حين يموت الضمير، تتحول السياسة والانتخابات والزواج والحب والإخلاص إلى سوق، إلى بورصة، يُباع فيها كل شيء بالورقة والأوراق.

جوهر الأخلاق هو جوهر قضية الإنسان المرأة، وقضية الإنسان الرجل. أصبحت قضية المرأة عِلمًا من العلوم مثل علم الطب والهندسة والقانون والاقتصاد والسياسة والدين والتاريخ، يتخصَّص فيها الأساتذة الرجال والنساء في معظم جامعات العالم شرقًا وغربًا، لم تعُد قضية المرأة «فهلوة» سياسية أو دينية أو إعلامية، يُفتي فيها رجال من هُواة الحديث عن المرأة، رجال يفخرون بعشقهم للنساء، حيث نرى رجالًا لا يشعرون بالعار حين يقولون إنهم يعشقون الجمال والنساء، وإنهم ينتقلون من امرأةٍ إلى أخرى؛ لأنهم في حاجةٍ إلى التغيير، إذا اقترب أحدُهم من الشيخوخة أصبح في حاجةٍ إلى فتاة عذراء تُعيد إليه شبابه وتُنسيه شبح الموت، يرث الابن عن أبيه فساد الضمير، لا يقلل ضعفُه الأخلاقي من وضعِه السياسي الوطني أو الاجتماعي والأدبي، لكن المرأة، هل سمعنا امرأة محترمة تُعلن أنها تقع في حب أي رجلٍ تقابله؟ أنها في حاجةٍ إلى شابٍّ نضرٍ يُعيد إليها شبابها؟ القانون

يفرض على المرأة رجلًا واحدًا في الحياة والموت، وإن كان مزواجًا فاسدَ الأخلاق، إن هربت منه إلى رجلٍ آخر يحترمها تشتعل كنائس وجوامع وتقوم حروب مُسلَّحة بين القبائل.

قضية المرأة تكشف الازدواجية الأخلاقية والسياسية والقانونية والاقتصادية والدينية، تربط بين السياسة والأخلاق، الازدواجية القانونية هي نفي للقانون مثل الازدواجية الأخلاقية هي نفي للأخلاق، مثل الازدواجية الدينية هي نفي للدين، فالدين الصحيح مثل السياسة الصحيحة مثل الاقتصاد الصحيح، يقوم على العدل والحرية والكرامة والمساواة بين البشر جميعًا، دون تفرقة، لأي سببٍ ديني أو جنسي أو سياسي أو اقتصادي، أو غيره، أليست هذه هي القيم التي تقوم عليها أي ثورة في العالم بما فيها الثورة المصرية الأخيرة؟

تقاوم الطبقات العليا تحرُّر الطبقات الأدنى من القهر الاقتصادي (يقولون عن مظاهرات الفقراء إنها ثورة جياع ورعاع أو مظاهرات فئوية لا ترقى إلى ثورة النبلاء من أجل الحرية)، يقاوم الرجال تحرُّر النساء من القهر الجنسي (يقولون عن حركات تحرير المرأة إنها مستوردة من الكفرة، خارجة عن القيم تطالب بالفساد والانحلال)، كيف نعالج الأثرياء من عشق المال رغم احتقارهم للماديات الدنيوية؟ كيف نعالج الرجال من عشق النساء رغم احتقارهم للجنس والمرأة؟

من المعروف في الطب النفسي أن أكثر الرجال غزوًا للنساء أقلهم احترامًا للمرأة، هناك فرق كبير بين الشخصية الإنسانية الرفيعة والشخصية الرجولية أو الذكورية، كذلك الفرق بين الشخصية الإنسانية الرفيعة والشخصية الأنثوية المؤنثة.

فشلت التربية في بيوتنا في خلق الضمير الحي، فشلت نظم التعليم المدني والديني في تطوير الذكر والأنثى إلى شخصيات إنسانية راقية. يتميز الإنسان الراقي بالقدرة على تغليب المسئولية الفردية والجماعية على شهوة الأكل والجنس والتسلُّط، الإنسان الراقي ليس هو المكبوت المُطيع للقوة المستبدَّة في الدولة والأسرة، بل القادر على تحمُّل المسئولية بإرادته الحرة، واختياره وحبه للعدل والكرامة والحرية والمساواة بين البشر، الإنسان الراقي هو الذي يحترم الصدق أكثر من الورقة، الإنسان الراقي يصنع الشعب الراقي القادر على الثورة ضد السُّلطة المُطلَقة في البيت والدولة، وضد المظاهر المزيفة للحقيقة.

الكباري مع السُّلطة

تدهشني دائمًا قدرة بعض الكاتبات والكُتَّاب، في الصُّحف الحكومية أو المعارضة، على الوصول إلى أصحاب السلطات الحاكمة، القديمة أو الجديدة، يستهل الواحد منهم مقاله قائلًا: أشكر السيد الوزير أو رئيس الوزراء، أو رئيس المجلس العسكري أو أحد لواءاته، على تكرُّمه بالرد على مقالي، وسرعة استجابته للإفراج عن فلان المسجون دون جريمة، أو إنصاف فلانة التي فُصِلَت من وظيفتها دون خطأ من جانبها، أو علاج الأديب الفلاني على نفقة الدولة؛ لأنه لا يملك ثمن العلاج. كثيرًا ما أقرأ لهؤلاء الكتَّاب الصحفيين، ومنهم مَن كان يكتب الشيء نفسه للمسئولين الساقطين أو غيرهم من أصحاب السلطات السابقة واللاحقة، يدهشني أكثر أن أغلبهم لا يزال في موقعه، يكتب بأسلوبه القديم، بعضهم من شباب الثورة الجدد، الذين يكتبون عن مشكلات مختلفة بالأسلوب ذاته، يفخر الكاتب منهم، القديم أو الجديد، أن رئيس الجيش أو رئيس الوزراء طلبه شخصيًّا أو تلفونيًّا، وسأل عن المشكلة أو المظلوم الوارد في مقاله، ثم أصدر الأمر فورًا بإنصافه أو حل المشكلة، ما يدهشني أكثر أنني رغم كوني كاتبة «مرموقة» منذ أكثر من نصف قرن، وحتى اليوم أكتب مقالًا أسبوعيًّا في جريدة تصدر في القاهرة، وأعرض الكثير من المظالم التي يعيشها أغلب الفقراء والنساء والأطفال البنات والأولاد، إلا أني لم أتلقَّ ردًّا من أي وزير أو مسئول سابق أو لاحق، فما بال رئيس وزراء حكومة الثورة العظيمة أو رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلَّحة الذي يتولَّى الحكم.

كان صديقي الأديب الراحل يوسف إدريس ينصحني دائمًا بعمل كباري مع السلطة الحاكمة، وإلا فلن أنال أبدًا لقب الكاتبة الكبيرة، أو جائزة الدولة، ولن يلتفت أحد من المسئولين الكبار أو الصغار إلى كتاباتي، وسألته: «وهل أنت تعمل كباري مع السلطة؟» قال: «نعم، كنت أقابل السادات كثيرًا، وأقابل مبارك أحيانًا، ولي علاقة بأغلب الوزراء

والمسئولين.» قلت له: «يا يوسف أنت أديب مبدع ولست في حاجةٍ إلى السلطة.» قال: «لا يوجد مُبدع في مصر يمكن أن يستمر في إبداعه دون حماية من السلطة الحاكمة، عندنا يا نوال مافيا الأدب والثقافة يمكن أن تنهشك نهشًا، أو على الأقل تطردك من الساحة الأدبية إن لم يكن لديك حماية من رئيس الدولة أو مسئول كبير آخر، لقد اختلفت مع مبارك مرة واحدة، وكاد يخلعني من ظهر الأرض، فأرسلت إليه شكوى قلت فيها: «إني أشكو منك إليك».» قلت: «أذكر يا يوسف أني قرأت مقالك في جريدة الأهرام ودُهشت كيف تخاطب مبارك كأنه الله تشكو منه إليه!» ضحك يوسف مقهقهًا، قال: «الواقع المؤلم يُحتِّم علينا أن نعمل كباري مع السلطة، وإلا تم تدميرنا دنيا وآخرة؛ لأن السلطة الحاكمة فوق الأرض تعمل كباري مع السلطة الحاكمة في السماء.» ثم واصل الضحك، لكني لم أضحك.

لم أستطع في كل حياتي عمل كوبري واحد مع السلطة، وإن تقرب أهل السلطة مني مرة واحدة، فهم سرعان ما يقررون عدم تكرارها أبدًا، ليس لعدم احترامي لهم، بل لعدم احترامهم لمن هو خارجهم، دائمًا أكون خارج السلطة الحاكمة، كالماء والزيت، لا سبيل للخلط، دافعت دائمًا عن كرامتي في كل العهود، قبل أن تقوم الثورة، قبل أن ترفع شعار الكرامة، قبل العدل والحرية، هدأت الثورة، عدنا إلى بيوتنا مطمئنين للسلطة الجديدة، لم يتغير من نظام الحكم القديم إلا بعض الوجوه، عاد أغلبهم لمناصبهم القديمة أو مناصب جديدة، بعضهم يسعى للعودة بوجوه مغسولة كما تُغسَل الأموال، تحت اسم النظافة والتطهير.

حضرت، مرة واحدة اللقاء الذي كان يعقده مبارك مع الأدباء والمفكرين خلال معرض الكتاب الدولي السنوي، الصفوف الأمامية مخصصة للموظفين الكبار، الوزراء والإعلاميين، والمقربين من الرئاسة ووزارة الثقافة والمجلس الأعلى للثقافة، مقاعدهم كبيرة ومغطاة بالقطيفة الحمراء، أما النصف الخلفي للقاعة فيشغله كراسي صغيرة من القش (خيزران) مثل كراسي البوابين وعمال الخدمة، هؤلاء من الشعب يجب احترامهم، أرفض التمييز بين الناس على أساس الجنس أو الطبقة أو المنصب، يُعقد هذا الاجتماع للقاء رئيس الدولة مع الأدباء والأديبات، رفضت الجلوس في المؤخرة على كرسي خيزران قش، سرت على قدمين ثابتتين إلى الصف الأول، على المقعد الكبير القطيفي الأحمر جلست بكل كرامتي الأدبية، وكأنما خرقت نظام الكون، أخذ رجال الرئاسة، وعلى رأسهم رئيس الديوان (زكريا عزمي آنذاك) يدورون حول أنفسهم حائرين مذعورين، لم أعرف لِمَ هم خائفون، قلت لهم: أنا الوحيدة المسئولة عن تصرفاتي، قال أحدهم: «نحن مسئولون أمام فخامة الرئيس عن تصرفات الآخرين.»

تذكَّرت مقولة: «الناس مِن خوف الذُّل في ذُل.»

عن يساري كان يجلس في كرسي قطيفي كبير رئيس اتحاد الكُتَّاب «ثروت أباظة» سمعني أناقش الكبير رئيس الديوان، أرفض بإباء وشمم أن أنتقل إلى الكراسي القش في المؤخرة، قال لي ثروت أباظة: «كل الأدباء الكبار يجلسون على الكراسي القس برضى.» قلت له: «المفروض أن يجلس الأدباء في المقدمة مثلك يا ثروت يا أباظة؛ لأن الاجتماع مُخصَّص لهم.» كان لطفي الخولي جالسًا إلى يسار ثروت أباظة، قال لي: «الكراسي مش مهمة يا دكتورة.» قلت له: «اذهب يا لطفي، واجلس على الكرسي القش في المؤخرة.» تكهرب الجو في القاعة، تأخر ظهور مبارك انتظارًا لحل الأزمة، قال أحدهم: «إنه أمر السيد الرئيس.» قلت: «يعني أمر الله؟ لا يمكن أن أترك مكاني حتى يأتي رئيسكم، وأعترض أمامه على الوضع، ثم أنسحب من الاجتماع.» قال الموظف بالرئاسة: «كل المقاعد مشغولة لا يوجد كرسي واحد فاضي.» كان يجلس في الصف الثاني خلفي مباشرةً الدكتور مفيد شهاب في مقعدٍ قطيفي ضخم، قال للموظف بغضب: «هات كرسي بسرعة للدكتورة نوال، لا يمكن تتنازل عن حقها أنا عارفها.» فجأة ظهر الكرسي فورًا، كيف جاءوا بالقطيفي الأحمر لأجلس عليه في الصفوف الأولى؟ كان الاجتماع قد تأخَّر، مبارك غاضب عليهم بسبب التأخير، لم يكن من حل للأزمة إلا أن يضربوا الأرض ليخرج من بطنها المقعد القطيفي الأحمر، تم أيضًا استدعاء الدكتورة أمينة الجندي من بيتها لتحضر الاجتماع فورًا، كانت هي وزيرة الشئون أو أمينة المرأة في الحزب الحاكم، تلبَّي الأمر فورًا، هل عجزوا عن استدعاء السيدة الأولى سوزان مبارك بهذا الشكل المتهور؟ ولماذا الإصرار على امرأة أخرى تجلس في الصفوف الأولى؟ هل كانت الحكومة تسقط أو وزير الإعلام يسقط لو ظهرت صورتي متربعة على العرش وحدي كأنني السيدة الأولى؟

هذا حدث من أحداثٍ متعددة أدَّت إلى هدم الكباري بيني وبين السلطات جميعًا، وإلا فلماذا لا يرن هاتفي بصوت رئيس الوزراء أو رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلَّحة ويقول لي: «قرأت مقالك، وأصدرت أمرًا فورًا لإصلاح الوضع»؟

الاحتقان الطائفي

لن يوقف الفتنة الدينية السياسية الدموية في مصر إلا استعادة العقل المصري الذي تم تغييبه وحبسه وتخويفه من التفكير، مجرد التفكير، ولا أقول الإبداع وخلق الأفكار والقيم الجديدة والسلوك الجديد اليومي، في البيت وفي الدولة والمجتمع، القائم على احترام حقوق الآخرين نساءً ورجالًا، أقباطًا ومسلمين، فقراء وأغنياء، محكومين وحُكَّامًا، مصريين وغير مصريين، لم يكن حادث كنيسة الإسكندرية ليلة رأس العام الجديد ٢٠١١م أمرًا جديدًا علينا، ألم نشهد مثله من قبل؟ ألم يطالب أصحاب وصاحبات الفكر المستنير بضرورة علاج جذور الفتنة الدينية السياسية؟ ليس باستنفار رجال البوليس لحماية الكنائس، بل باستنفار العقول المصرية لتفكر وتستعيد القدرة على التفكير، القدرة على رفض الخزعبلات السياسية الدينية التي أصبحت تُعشش في عقول الأطفال والتلاميذ والمدرِّسين والأساتذة النساء والرجال الآباء والأمهات ورؤساء الأحزاب والجمعيات والفضائيات الدينية السياسية، هي فتنة دينية سياسية وليست مجرد فتنة طائفية، هي إرهاب للعقل المصري من الداخل والخارج وليس الخارج فقط، إرهاب لكل من يفكر رجلًا أو امرأة، ألا تذكرون قضايا الحِسبة التي تم رفعها ضد المفكرين من الرجال والنساء، تحت تهمة الكفر لمجرد أنهم فكروا، واستخدموا عقولهم، ورفضوا التجارة بالدين والسياسة، كيف تخلَّت الدولة والحكومة والأحزاب والجمعيات عن هؤلاء المفكرين وتركتهم وحدهم في المعركة؟ بل ساعدت في ضربهم ليكونوا كبش الفداء لأنظمة حكم مستبدة فاسدة في الداخل والخارج معًا، الأسرة والدولة معًا.

إن الفساد الدولي جزء لا ينفصل عن الفساد داخل كل بلد، والفساد السياسي الاقتصادي في الدولة الواحدة لا ينفصل عن الفساد الأخلاقي القانوني داخل الأسرة وداخل الحزب أو الجمعية أو الجماعة، نحن نعيش في ظل نظام عالمي محلي واحد، يضرب الفقراء

والنساء والأطفال والشعوب الضعيفة غير المسلَّحة، بدلًا من ضرب الإرهابيين الأقوياء المسلَّحين بالقنابل النووية والأسلحة الحديثة الأخرى في الدول الكبرى، والمسلَّحين بالجنازير والمطاوي والقنابل اليدوية التي أصبحت في متناول الأفراد أو الجماعات السياسية الدينية في الشرق والغرب. يدخل الدين (أي دين من اليهودية إلى البوذية مرورًا بكل الأديان) في المعارك السياسية دائمًا لضرب الخصوم بتهمة الكفر وعدم تنفيذ أحكام الله، التي هي أحكام أصحاب السلاح (نووي أو مجرد مطاوي يدوية) مندوبو الله على الأرض، الذين يفسرون كل الكتب الدينية حسب مصالحهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقيم التي تربَّوا عليها من الآباء والأجداد والأسلاف.

إن التيارات السلفية السياسية الدينية (تسمَّى اليوم التيارات الأصولية) ليست ظاهرة سياسية جديدة، بل هي قديمة منذ العبودية أو سيطرة طبقة الأسياد على العبيد وجنس الذكور على الإناث. لو قرأنا التاريخ لعرفنا أن هذه التيارات السلفية الأصولية تبرز في عصور الانحطاط الثقافي، وتغييب العقل لتمرير قوانين طبقية أبوية استبدادية استعمارية تنهب حقوق الشعب، النساء والأطفال، تحت شعارات دينية مقدَّسة، تبيح قتل المفكرين والمفكرات بتهمة الكفر والزندقة والخيانة الوطنية، يتم ترويض التلاميذ في المدارس على الهتاف في طابور الصباح: «الله الوطن الملك» (أو الإمبراطور أو الرئيس)، أي تلميذة أو تلميذ لا يشارك في الهتاف يُفصَل بقرار من وزير التربية والتعليم، أصبحت وزارات التربية والتعليم هي البوليس المتحكِّم في العقل، هي الأداة التي تُلغي التفكير وتُغيِّب العقل منذ الطفولة، فلماذا لا تحاكموا وزراء التربية والتعليم بدلًا من استنفار رجال البوليس لحماية الكنائس من مذابح ما تسمونه الاحتقان الطائفي؟

إنه الاختناق العقلي أيها السادة، وليس الاحتقان الطائفي، وهو ظاهرة تاريخية قديمة تتجدد على الدوام للقضاء على مقاومة الشعوب الفقراء والنساء والأطفال، في ظل حكم استبدادي استغلالي لا يمكنه السيطرة على الأجساد والأرض والماديات دون تغييب العقل والتفكير. لو استعاد «العقل» وعيه، واكتشف الخداع التعليمي الثقافي، فلن يبقى حاكم على عرشه، تقوم الحكومات على إلغاء العقل لتحكم وتتحكَّم، في كل زمان ومكان، وليس فقط في هذا العصر وفي هذا البلد.

ليست السلفية الأصولية الدينية السياسية قاصرة على دين واحد أو قومية واحدة، بل هي ظاهرة متكررة في كل الأديان والقوميات والعصور، لو تذكرنا ما حدث في القرن السابع عشر، حين غزا المسيحيون الإنجليز السلفيون الأصوليون ما أطلقوا عليه اسم

«إنجلترا الجديدة» (الأرض الأمريكية حاليًّا) التي استولوا عليها بقوة السلاح على الساحل الشمالي للمحيط الأطلنطي، اعتقد هؤلاء الغزاة الإنجليز السلفيون أن الشعب الأمريكي، سكان الأرض المحتلة ليسوا مثلهم يؤمنون بالله والمسيح، بل هم في قبضة الشيطان والشر، ولا بد من إبادتهم عن آخرهم لحفظ دين الله والمسيح.

وفي هذا القرن الواحد والعشرين، ألا يعلن نتنياهو وجيشه المحتل لأرض فلسطين أن دولة إسرائيل هي دولة يهودية تؤمن بالتوراة، كتاب الله، الذي وعدهم بالأرض الموعودة؛ لأنهم هم بنو إسرائيل المؤمنون بالإله يهوه، وقد أمرهم بإبادة سكان الأرض المحتلة؛ لأنهم يعبدون إلهًا آخر غير يهوه؟ وها هو الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن يعلن أن «كل من ليس معنا ولا يؤمن بحضارتنا الأمريكية المسيحية هو من أهل الشيطان في «محور الشر».» وفي هذا العصر الحالي أيضًا ألم يصدر زعيم المسيحيين في كنيسة مورمون «وارين جيف» فتوى تؤكد أن من حق الرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء، وقد تزوج وارين جيف بأربعين امرأة على الأقل، وقد قبض عليه البوليس أخيرًا بتهمة اغتصاب الأطفال جنسيًّا، واتضح أن جماعته المورمون تدفع له ما يقرب من ثلاثة ملايين جنيه إسترليني شهريًّا، وقد استخدم هذا المال الضخم لإشباع شهواته ونزواته تحت اسم أمر الله، هل تختلف حياة هذا الزعيم الديني السلفي عن أمراء الجماعات الإسلامية السياسية التي تصاعدت في هذا القرن؟ هل تقدم العالم البشري كثيرًا من القرن ١٧ حتى القرن ٢١؟

إن مذبحة كنيسة الإسكندرية ليلة رأس العام الجديد ٢٠١١م، ليست إلا واحدة من مذابح كثيرة حدثت في السنين الأخيرة، وسوف تتكرر حتى تنقسم مصر كما انقسم السودان إلى جنوب مسيحي وشمال إسلامي.

تلك هي الخطة السياسية الدينية التعليمية التربوية أيها السادة، التي يعرفها وينكرها الجميع «فرِّق تسُد» هي سياسة خارجية وداخلية من سالف القرون لضرب وحدة المقاومة الشعبية فقراء ونساءً وأطفالًا، إن المسألة ليست مجرد احتقان طائفي، بل هي اختناق العقل المصري وتغييبه وقتله تحت اسم حماية دين الله من المفكرين الكفرة، والعلاج ليس بزيادة عدد المتاريس ورجال البوليس، بل برفع الحظر عن العقل المصري، بالحرية الفكرية والثقافية أيها السادة، بمحاكمة علنية لوزراء التعليم والتربية والإعلام والثقافة منذ القرن الماضي، الذين جعلوا الفتاوى والخزعبلات والحجاب والنقاب والرعب من الجحيم وعذاب القبر يقتل عقول النساء والرجال والأطفال، انظروا إلى الأطفال البنات المحجبات المنكسرات المطأطئات الرءوس في المدارس الابتدائية، انظروا كيف تؤمن المرأة الجامعية أن من حق زوجها أن يضربها ليؤدِّبها حسب أمر الله، ومن حقه أن يخونها ويتزوج عليها

ثلاث نساء أخريات، آخرهن قد تكون أصغر منه بنصف قرن، انظروا إلى ما يدور في الفضائيات من حوار تافه رخيص يتاجر بالتديُّن الزائف، انظروا إلى العلاقة بين الفساد في الدولة والعائلة، في الانتخابات وفي التجارة والبيزنس والسوق الحرة، انظروا أيها السادة، واستخدموا العقل المقهور المحبوس على مدى السنين من الطفولة حتى آخر العمر.

القوى السياسية وقضية المرأة

منذ بداية القرن العشرين لم نعرف من روَّاد تحرير المرأة المصرية إلا بعض رجال الطبقة العليا، منهم قاسم أمين باشا، وقد قامت ثورة ١٩١٩م على أكتاف الشعب نساءً ورجالًا، دُفِن أبطالها في التاريخ، وبرز على السطح سعد زغلول باشا، وهدى شعراوي.

وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢م على أكتاف الشعب المصري، منهم الشباب من طالبات وطلاب الجامعات، وقد دُسنا بأقدامنا صورة الملك فاروق، وشكَّلنا كتائب الفدائيين التي حاربت الجيش البريطاني في القنال ومهَّدت دماؤهم لقيام ثورة يوليو ١٩٥٢م، وإسقاط النظام الملكي، وطرد الاستعمار البريطاني، وقفز إلى السلطة ضباط الجيش في ٢٣ يوليو، أدخلوا الأبطال الحقيقيين السجون، بعضهم دُفِن وراء القضبان، وبعضهم مات معزولًا بالبيت.

بعد ثورة يناير ٢٠١١م يتم دفن البطلات والأبطال الحقيقيين في القبور والسجون، وإقصاؤهم عن الحكم، ويتم تجاهُل جهود الحركة النسائية المصرية التي لعبت دورًا رائدًا في الفكر المستنير والثورة ضد النظم الفاسدة. وبعد قفز التيار الإسلامي إلى الحكم بعد ثورة يناير برزت النساء المنتقبات والمحتجبات، لا نسمع صوت إحداهن تدافع عن حقوق النساء المسلوبة، بل يرددن ما يقوله رجالهن، أن الخِتان والحجاب جزء من هوية المرأة المسلمة.

قضية تحرير النساء لا تنفصل عن قضية تحرير مصر كلها، وقد ربطت رائدات الحركة النسائية المصرية، منذ ستين عامًا، بين تحرير مصر من الاستعمار الخارجي، وتحرير النساء والرجال من النظام الطبقي الأبوي المستبد داخليًّا، وكان المفترض أن تكون قضية المرأة من القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية المهمة بعد الثورة التي نادت بالعدالة الاجتماعية والحرية والكرامة للجميع، وشاركت النساء جنبًا إلى جنب الرجال

في الثورة، لكن أهمية القضايا لا تنبع من مبدأ العدالة، بل من منطق القوة، والنساء خارج دائرة القوة هذه، أغلبهن داخل جدران البيوت مُقيَّدات بسلطة الزوج أو الأب.

وإن خرجت المرأة للعمل بأجر وأنفقت على الأسرة، أو نالت أعلى المناصب، فهي تظل تحت سلطة أبيها أو زوجها المُطلَقة.

يتميز النظام الأبوي في الدولة والعائلة بالاستبداد والازدواجية وعدم المنطق، وهو نظام سياسي بشري تم تحويله إلى قانون الله وكلمة الله، تجعل القلوب (خاصةً قلوب النساء) ترتجف بالخوف من العقاب في الدنيا والآخرة، وتم ترسيخ هذا الخوف في قلوب الأطفال في البيوت والمدارس والأحزاب، وكل مؤسسة عامة أو خاصة، وقد يتخلَّص الإنسان الناضج من هذا الخوف عقليًّا، إلا أن الخوف الطفولي يلازم شعوره ووجدانه حتى القبر.

تجدِّد التيارات الدينية والسياسية هذا الخوف في نفوس الشعب المصري تحت اسم حماية الدين والوطن والذات الإلهية والهوية والقومية والأصالة والتراث والخصوصية الثقافية، وبعض التيارات تعتبر دور المرأة «كأم وزوجة» هو هويتها الوحيدة الأصيلة.

ويشتد التهديد للشعب وتخويفه، تحت اسم حماية الذات الإلهية أو الذات الجمهورية (الذات الملكية سابقًا)، وقد كنَّا في الطفولة نهتف في طابور المدرسة كل صباح: «الله ... الملك ... الوطن» في نَفَس واحد، ودخل الشباب الوطني الثائر السجون تحت اسم نقد الذات الإلهية أو الملكية أو الجمهورية. امتدت الحماية المقدسة إلى شخصيات تاريخية في قبيلة قريش أو عشيرة سعودية أو جماعة دينية، تم ضمها إلى الذوات المقدسة التي لا تُنتقَد.

وتُتَّهم المرأة المناضلة لتحرير النساء بالكفر أو الإباحية أو الخيانة الوطنية لترويعها، فتكُف عن الحركة، وقد فشلت النساء (والرجال من ذوي الضمائر) في تغيير قانون الأحوال الشخصية رغم النضال الطويل عبر القرون، بسبب هذا الخوف والتخويف المزمن المتجدد.

ولم تكن كشوف العذرية للشابات المشاركات في ثورة يناير إلا محاولة لإشاعة الخوف بين الفتيات وعائلاتهن، وبالتالي تخويف الأهالي ليمنعوا بناتهم من الخروج إلى المظاهرات خوفًا على عذريتهن، وحمايةً لشرف الأسرة؛ لأن المساس بشرف الأسرة لا يقل خطورةً في نفوس الشعب المصري عن المساس بالذات الإلهية أو الملكية أو الجمهورية.

تزيد إشكالية قضية تحرير النساء مع تصاعُد القوى الطبقية الرأسمالية والدينية في مصر والخارج، والاستعمار البريطاني، ومن بعده الاستعمار الأمريكي الإسرائيلي هم حلفاء القوى الدينية اليمينية، مسيحية أو يهودية أو إسلامية، محليًّا وعالميًّا، والقهر الطبقي لا ينفصل عن القهر الديني الأبوي في الماضي والحاضر، وقد تتحمَّس قوى اليسار الاشتراكية

أو الليبرالية لقضية النساء (مرحليًّا تكتيكيًّا) لاستخدامهن في الثورة ضد الاستعمار والإمبريالية والصهيونية والاستبداد الداخلي، بشرط ألا تتجاوز المرأة حدودها وتُطالب بتغيير قانون الأسرة، أو المساواة بين النساء والرجال في الدستور.

وقد تمكَّنت القوى السياسية بجميع أطيافها (يسار ويمين ووسط ودينيون) من أن تستولي على مهمة إعداد الدستور الجديد، اختلفوا على كل شيء، واتفقوا جميعًا على شيء واحد: تجاهُل قضية المرأة. ونشر أحد زعماء اليسار المصري برنامج حزبه لتحقيق مبادئ الثورة: الحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة، ولم ترد كلمة قضية المرأة في البرنامج أو مساواة النساء والرجال في الدستور، ودائمًا تتوقف العدالة الاجتماعية عند عتبة البيت، وتظل الأسرة الأبوية من الثوابت المقدسة في نظر الجميع، بصرف النظر عن اختلافاتهم الدينية والعقائدية، وفشل اليسار في تحرير الطبقات الكادحة من الفقر والأمية. مع ذلك يُحمِّلون النساء مسئولية القضاء على الفقر والأمية، ويتهمونها بالنُّخبوية إن ناضلن ضد العنف الجنسي أو ضد الختان، أو ضد الازدواجية الأخلاقية، أو ضد حق الرجل المُطلَق في تعدُّد الزوجات والطلاق، لكن الرجال يمطون «بوزهم» في وجه النساء إن نطقن كلمة «حرية المرأة» باعتبار أن حرية المرأة من الكماليات المستوردة من الغرب، أو أنها مَطلَب قِلَّة من نساء الطبقة البرجوازية، كأنما النساء الفقيرات لا يعرفن معنى الحرية، أو ليست من حقهن. أما حرية الرجل فهي حق للرجال من جميع الطبقات الفقيرة والغنية.

تدور الحركة النسائية داخل هذه الحلقة المفرغة الفارغة، ونحن في حاجة إلى أجيال جديدة من النساء الشجاعات الواعيات لا يستمعن إلى ما يقوله المبتسرون والمبتسرات من كل الاتجاهات.

نحن في حاجة إلى تحرير العقل الواعي والعقل الباطن، وإلى أجيال جديدة من النساء يدفعن ثمن الحرية، ويدركن ضرورة الاتحاد والتنظيم، وأن حرية المرأة هي حرية الرجل، وكرامتها هي كرامته وتحرير المرأة يبدأ بنفسها.

الفلاح بوله أحمر

أكتب الآن، قبل أن تظهر نتيجة الانتخابات الرئاسية المصرية، لا أعرف من يكون رئيس الدولة المصرية غدًا، لم أنتخب أحدًا في أي عهد من العهود، لم ألتف حول زعيم، مادي أو روحاني، لم أومن بالمهدي المنتظر أو البطولة الفردية، لم أذهب إلى المطار للقاء البرادعي أو زويل، وهل يأتي مُنقذ الوطن بالطائرة؟ أو محمولًا فوق أعناق الجماهير.

كلمة «الجماهير» تُثير عندي الشكوك.

سادت كلمة «الجماهير» في الاتحاد الاشتراكي عام ١٩٦٥م أيام عبد الناصر، وتحوَّلت إلى كلمة «مصرنا الحبيبة» عام ١٩٧٥م أيام السادات، ثم أصبحت «مصر العريقة» عام ١٩٩٩م أيام مبارك، وتحولت إلى «الثورة المجيدة» بعد سقوط مبارك في ١١ فبراير ٢٠١١م.

كانت أمي تقول: «كلهم زي بعض.» وأبي يقول: «يتاجرون بربنا والفقراء والفلاحين من إخوان مسلمين وشيوعيين.»

اكتشفت أن مقعد الحكم يُفسد الجميع، الملائكة والشياطين، لا يوجد شيء اسمه ملائكة أو شياطين، بل «بشر» يتم إفسادهم بالتربية والثقافة والتعليم.

ألم تفسد النخبة المثقفة في كل العهود؟ ألم تنافق وتراوغ في تعريف مَن هو الفلاح أيام عبد الناصر؟ ثم دخلت النخبة المثقفة والأثرياء والأدباء إلى مجلس الشعب تحت اسم الفلاحين، كذلك السلفيون والإسلاميون دخلوا البرلمان تحت اسم الله والصندوق والشريعة.

كما صعدت فوق جسد الثورة المصرية «عام ٢٠١١–٢٠١٢م» قوى سياسية تحت اسم الثوار والشهداء والديمقراطية. تنازعوا على امتلاك الثورة، مزَّقوها بينهم تمزيقًا، مثل الأم في مسرحية بريخت، «الأم غير الحقيقية» التي قبلت تمزيق طفلها من أجل امتلاك نصفه، وتنازلت «الأم الحقيقية» عن نصيبها، ليظل طفلها حيًّا كامل الجسد.

تغنوا بالانتخابات البرلمانية، تجاهلوا العقل والمنطق الذي قال الدستور أولًا، دعوا إلى شرعية الصندوق وعرس الديمقراطية، فرحوا بفتات المقاعد في مجلس الشعب والجمعية التأسيسية والمجلس الاستشاري والثقافي والإعلامي، ثم فرحوا بحل كل هذه المجالس الزائفة، كأنما لم يشاركوا في صنعها، فرحوا بصورهم في الصحف والمجلات، وضعوا الماكياج، وأصبحوا أبطال الثورة فوق الشاشة، ثم انقلبوا على أعقابهم، وانفرط عقدهم، انسحبوا ثم اجتمعوا مع المجلس العسكري، ثم انسحبوا، تكرر المشهد دون اعتراف بالخطأ، لم يشعروا بأي تأنيب ضمير، يجعرون في الصحف والأبواق بأخطاء الجميع، إلا أنفسهم، يرون القشة في عين الآخرين، ولا يرون الخشبة في عين الواحد منهم، لم يتعودوا التفكير الإبداعي المستقل، يدورون مثل آبائهم في الحلقة المفرغة، تعودوا أن يكونوا أتباع غيرهم في الفكر والعمل.

التبعية الثقافية جزء لا يتجزَّأ عن أعمدة الدكتاتوريات القديمة، منذ العصر الإقطاعي العبودي، حتى الديمقراطيات الحديثة، في القرن الواحد والعشرين.

تؤدي التبعية الثقافية إلى كل التبعيات الأخرى: السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الدينية، الأخلاقية، الشخصية والعامة.

لا يمكن لقلة قليلة يملكون السلاح والمال والإعلام أن يحكموا الأغلبية الساحقة من الشعوب دون السيطرة على العقول، تحويل العقل من الاستقلال إلى «التبعية»، الإحساس بالراحة والأمان في التبعية للآخرين، الإحساس بالخوف والخطر في الاستقلال والإبداع.

أصبحت الانتخابات هي البقرة المقدَّسة، يعبدها الجميع رغم قصورها الواضح، فشلت الديمقراطية الانتخابية تحت حكم الرأسمالية الأبوية في كل بلاد العالم، وإلا فما هو تفسير قيام الثورات الشعبية من «ميدان التحرير» في القاهرة إلى «وول ستريت» في نيويورك؟

بعد تصادم السلطة القضائية بالسلطة التشريعية والتنفيذية في مصر، ارتفعت الأصوات تؤكد أن «ضمير القاضي» يعلو على السلطات، هل يختلف «ضمير القاضي» عن «ضمير الصحفي» أو «المحامي» أو «الطبيب» أو «العامل» أو «الفلاح» أو «عضو مجلس الشعب» أو «المجلس الأعلى»؟ هل يختلف الضمير باختلاف المهنة؟ الطبقة؟ الجنس؟ الدين؟ العمر؟ وكيف يتكوَّن الضمير في مصر؟

كان حكم الملك فاروق فاسدًا، لكن الراديو والصُّحف والنُّخبة والكبار في الدولة آنذاك قالوا عنه الملك الصالح، تكرر ذلك في كل العهود.

حكاية الملك العاري معروفة، الجميع من حوله يقولون: «ملابس جلالتكم مُبهرة عظيمة.» إلا الطفل صاح: «أرى الملك عاريًا.» يتمتع الأطفال بالصدق والتلقائية، ثم يتعلمون

النفاق في البيوت والمدارس والجوامع والكنائس والأحزاب والمصالح والمؤسسات العامة والخاصة.

في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، دار الحوار بين النخبة المصرية عن تعريف مَن هو الفلاح؟ رأيت جمال عبد الناصر جالسًا على المنصة من حوله رجال الدولة والوزراء، سمعت المفكرين من النخبة يتبارون في تعريف الفلاح المصري، يجتهدون للوصول إلى تعريف مُراوغ يسمح بدخولهم وضباط الجيش وأصحاب الأموال والوزراء إلى مجلس الشعب تحت فئة العُمَّال والفلاحين، جاء دوري لأرد على السؤال: من هو الفلاح؟ اشتغلت طبيبة في الريف، أعلم أن ٩٩٪ من الفلاحين مرضَى بالبلهارسيا، ينزفون الدم مع البول، كان أهل القرية يتصورون أن البول الأحمر طبيعي، ودليل الصحة وقوة الدم، وقلت بتلقائية: «الفلاح هو الذي بوله أحمر.» دب الصمت في القاعة المكتظَّة بالآلاف، فوق المنصة أصبحت الوجوه متجهِّمة عضلاتها مشدودة كأنما بالأسلاك، استمر الصمت دقيقة، ثم تجاهل الجميع ما قلت، منذ لك اليوم (عام ١٩٦٢م) أصبح دوسيه يحمل اسمي في جهاز الأمن، وعبارة من ثلاث كلمات، مكتوبة بخط يد شعراوي جُمعة وزير الداخلية: «تجرؤ غير مطلوب».

الثورة المصرية مستمرة، وسوف تحقق أهدافها على مر السنين، بثورة في التربية والثقافة والتعليم، تقوم على الصدق والشجاعة والإبداع، وليس الطاعة والتخويف والسير ضمن القطيع.

فضيلة الركوع

هناك علاقة تاريخية بين تركيع النساء لسلطة الرجال في العائلة، وتركيع الدول المستعمَرة لسلطة الدول الأقوى المستعمِرة، الطاعة هي القانون الأزلي لفضيلة الخضوع والركوع.

يمدح الرجل زوجته؛ لأنها «مُطيعة وديعة»، وتمدح أمريكا «مصر»؛ لأنها دولة معتدلة وديعة، تُطيع الأوامر، وإن أطاحت بالقانون والقضاء والشعب كله.

لم تتغير فضيلة الطاعة منذ العبودية، فقط تغيَّرت اللغة والكلمات، أصبح الخداع اللُّغوي عبر تكنولوجيا الإعلام مبهرًا، وتحول الركوع إلى كبرياء مزيف تحت اسم الحب والصداقة والديمقراطية والانتخابات الحرة والسوق الحرة.

بعد الثورات الشعبية أصحبت هذه الكلمات سيئة السُّمعة، هل يصدق أحد لعبة الانتخابات البرلمانية أو الرئاسية أو لجنة الدستور أو حكاية التمويل الأجنبي للجمعيات الأهلية؟

يقول السناتور الأمريكي «جون ماكين» للحكومة المصرية: «اخبطي رأسك في الحائط، فنحن نملك القرار النهائي.» ويقول المجلس العسكري للشعب المصري: «اخبطوا رءوسكم في الحائط واصرخوا في المظاهرات، فنحن نملك إصدار القرارات.»

ويقول الزوج لزوجته: «اخبطي رأسك في الحائط، أنا أملك القانون والدين والشرف.»

عملية الركوع أو السجود لا تحدث إلا في العلاقات بين الأسياد والعبيد، أفرادًا أو جماعات أو دولًا.

يطغى جنون القوة المُطلَقة على منطق العدل والعقل. تقترن الطاعة والخضوع بحركة الجسد، الانحناء الشديد حتى الركوع على الركبتين، أو السجود بالجبهة فوق الأرض. في المعتقل يضربون المسجون حتى يسجد ويمرغ أنفه في التراب، ويقولون له: قل «أنا مَرَة». أكبر إهانة للرجل أن يصبح امرأة، حسب القيم منذ العبودية.

أحد الكُتَّاب الصحفيين في مصر، كتب يقول إنه ضُرب في السجن، حتى فقد الوعي، لكنه لم ينطق قط كلمة «أنا مَرَة»، نشر هذا الكاتب الصحفي ثلاثة كتب عن قضية تحرير المرأة، ويعتبرونه رائد النساء المصريات بعد قاسم أمين.

في إحدى الندوات نهضت أستاذة جامعية، قالت إن الله أمر المرأة بالطاعة، وإن ضرب الرجل لزوجته يتفق مع الآية القرآنية: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾، وأن سجود المرأة لزوجها مشروع حسب الحديث النبوي: «لو أمرتُ المرأة أن تسجُد لغير الله لأمرتُها أن تسجُد لزوجها.» نهض طالب شاب قائلًا: إن عملية الضرب أو سجود المرأة موروث منذ العبودية، وصفَّقت له الطالبات.

هل يمكن لإنسانة تحترم نفسها أن تُطيع أمر شخص دون اقتناع، وإن كان والدها أو زوجها أو رئيسها في العمل أو رئيس الدولة؟ فما بال أن تركع له أو تسجُد؟

وهل تختلف كرامة الإنسان حسب الجنس؟

تفقد المرأة كرامتها، وتقبل الضرب أو الركوع بسبب الضغوط الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو القانونية أو الدينية أو الأخلاقية أو النفسية.

الدولة تفقد كرامتها أيضًا تحت الضغوط الاقتصادية أو العسكرية أو السياسية.

لكن هناك نساءً ودُولًا ترفض الضغوط وتقاوم وتثور وتتحرَّر.

الدولة المصرية فقدت كرامتها وإرادتها تحت حكم الاحتلال الأجنبي، حتى عام ١٩٥٦م، وتحرير قناة السويس من قبضة الاستعمار البريطاني، لكن هزيمة ١٩٦٧م الكبرى، وقبول المعونة الأمريكية (مع الانفتاح الاقتصادي) في السبعينيات، أعادا مصر تحت نير الاستعمار الأجنبي والخضوع للهيمنة الأمريكية الإسرائيلية، مع تصاعُد التيارات الدينية الذكورية المُعادية للنساء.

التصريحات النارية في الصحف والإعلام المصري أن مصر «لن تركع» لأمريكا، ولن تسمح بسفر الأمريكيين المتورطين في قضية التمويل الأجنبي، عبارة «لن تركع» لا تُستخدم بين الدُّول المتساوية، أو بين الأفراد المتساوين، فالقانون يحكم بينهم، وليس الطاعة والركوع.

يقاوم الضعيف (العاجز عن القرار) بالزعيق والكبرياء الزائف، يتكلم الأقوى بصوت منخفض، ثم يتخذ القرارات، وتأتي الطائرة العسكرية تنقل الأمريكيين من مصر، رغم إرادة القضاء والشعب والثورة، وكل الإرادات.

تُطيع الدولة الضعيفة وتركع، رغم القسم بأغلظ الأيمان إنها لن تركع.

قال لي أحد الصحفيين: «الشعب المصري يشعُر بالعار والهوان بدرجة غير مسبوقة في التاريخ.»

قلت له: «المجلس العسكري والحكومة هم من ركعوا وتهاونوا في كرامتهم، وليس الشعب المصري.»

قال: «أصحاب السُّلطة المستبدة لا يمكنهم الاعتراف بالضعف، يُصدِرون تصريحات كأنهم الأبطال الأسياد ونحن العبيد.»

قلت: «أنتَ أحسن حالًا من زوجتك، أليس كذلك؟»

أطبق في صمت. كان يضرب زوجته إن هددته بالخُلع بسبب علاقاته بأُخريات.

في إحصائية أخيرة تأتي «مصر» بين الدول متقدمةً جدًّا «رقم ٤» في ضرب الزوجات، ثم تأتي متأخرةً جدًّا «رقم ١٩» في تلوث البيئة.

في ١٢ فبراير ٢٠١٢م، بجريدة الأهرام، كتب د. علي جمعة مفتي الجمهورية مقالًا جاء فيه: «إن الإسلام قرر المساواة بين الناس جميعًا، أما الآية القرآنية التي تقول: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (سورة النساء: ٣٤)، لا تتحدث عن جنس الرجال وجنس النساء، بل تتحدث عن الزوج وزوجته، حيث جاء فيها: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ولا يصح لأي رجل أن يفعل ذلك إلا بزوجته.»

هل يُعقل أن تكون الزوجة المصرية أكثر المضروبات في العالم؟ وتأتي مصر في مؤخرة المستعمرات الجديدة عام ٢٠١٢م رغم حضارتنا العريقة؟

إذا كنت صادقًا فأنت في غير حاجة إلى القسم بالله العظيم، وإذا كنت لا تركع لأحد فأنت لا تُقسم.

طيور الظَّلام

تحرَّش بعض الرجال بالشابات الثائرات بالميدان، لم يوضح الإعلام نوع هؤلاء الرجال، تم الخلط المتعمَّد بين شباب مصر الناهض صانع الثورة، وبلطجية النظام السابق.

أخبار التحرُّش الجنسي تحت اسم حماية العُذرية والدين والأخلاق طغت على أخبار التحرُّش السياسي الانتخابي تحت اسم الشرعية والديمقراطية.

كبار الصحفيين كتبوا أن البشر يخطئون، منهم المجلس العسكري، كل شيء نسبي منه القانون العادل، يجب تقبُّل حكم المحكمة ونتائج الصندوق، ونذهب جميعًا إلى جولة الإعادة، قواعد اللعبة الديمقراطية يجب ألا تنقض.

سألني الإعلامي: «هل التحرُّش بالبنات بسبب الجوع الجنسي لدى الشباب؟»

قلت: «لا، بسب الجوع للسُّلطة والثروة والتنافُس على الحكم.»

«اشرحي يا دكتورة.»

قلت: «للتحرش الجنسي هدف سياسي، هو تخويف الشابات من النزول للميدان، وتخويف الأهالي ليمنعوا بناتهم من المشاركة في الثورة، بهدف إجهاضها.»

قال الإعلامي: «إجهاض الثورة حدث بالشباب الثوار أنفسهم، وكثرة انقساماتهم ورغبتهم في هدم أعمدة الدولة.»

قلت: «الثورة نادت بإسقاط النظام، أليس كذلك؟»

قال: «وهل الدولة هي النظام؟»

أغلب كبار الكُتَّاب الصحفيين والصحفيات، يرتبطون عضويًّا بالسُّلطة والثروة، فالصحافة أحد أعمدة الدولة، هي السلطة الرابعة، تسبقها السلطة التشريعية، ثم القضائية، ثم التنفيذية، الفصل بين السلطات على الورق فقط، العائلة الواحدة تتجسَّد فيها السلطات الأربعة: الوزير والقاضي والصحفي وعضو مجلس الشعب، يرتفع الوزير

عن الجميع، يمشي رئيس البرلمان خلف رئيس الوزراء، يجلس رئيس الدولة واضعًا الساق فوق الساق أمام جميع السلطات، إلا خارج القطر، يُنزل ساقه أمام السلطة الدولية الأعلى. الطبقة تحكم، ليس الفرد وإن كان مستبدًّا، حسني مبارك سقط والطبقة الحاكمة باقية، منهم كبار الكتَّاب الصحفيين، يتغيَّر موظف كبير (رئيس تحرير)، لكن يبقى الصحفيون الكبار في أماكنهم صامدين، يؤمنون بالحكمة والمرونة والتعددية، والتكيُّف مع الظروف والواقع، والانحناء للعاصفة حتى تمر، ينال الكاتب الصحفي منهم إعجاب الحكومة والمعارضة، وأمريكا وروسيا والصين، له أكثر من مقال في صحف متعددة.

الشعب مصدر السُّلطات وفوقها جميعًا حسب الدستور، العكس هو الواقع، فالشعب معدوم السُّلطة حتى يخرج إلى الشوارع في ثورة، ولا يعود إلا بعد تحقيق أهدافه كلها، أمر لا يتحقق في التاريخ إلا بعد سنين أو عقود من الصراع الدامي بين الثورة والثورة المضادة، السلطة أو الثروة لا تأتي أو تزول إلا بالدم، فما بالنا بالاثنين معًا؟

نشهد التحول السريع لأغلب كبار الكتَّاب الصحفيين، من الاشتراكية إلى الليبرالية إلى الإسلامية إلى السلفية إلى السُّنية إلى الشِّيعية إلى الصوفية ومشايخ الطرق، يتحولون من زعماء المادية الجدلية إلى زعماء الرُّوحانية الصوفية، لقد انهار الفاصل بين المادة والرُّوح في علم الكون، بعد انقسام الإلكترون، لا يمكن قياس سرعة «الكوارك» بأي مقياس معروف، يبدو من شدة سرعته موجودًا في مكانين في آنٍ واحد، وكالأرض ساكنًا.

هناك رجال دين ينكرون حركة الأرض، لولا جهاز الكمبيوتر تحت لحم أصابعهم لتصوروا أن رسائلهم الإلكترونية تحملها الأرواح الخفية عبر البحار والمحيطات.

جريدة كبرى تحمل مقالات الكاتب الصحفي الكبير، لم تتغير صورته منذ كان صحفيًّا شابًّا في العشرين أو الثلاثين، يصبغ شعره مثل رئيسه، عاش عصر السادات ومبارك، دون أن يزول عنه شبابه في الصورة، دخل السجن بسبب مقال نقد فيه الحكومة، ثم خرج من السجن بطلًا يحتل صفحة أو نصف صفحة، له طابور من الصحفيات الناشئات المتطلِّعات للمجد دون كفاءة، تظن الواحدة منهن ببلاهة أنها الوحيدة في حياته.

أشاد بالسادات بطل الحرب والسلام، ومبارك بطل العبور والنصر، جمال مبارك الشبل من ذاك الأسد، سيُرشحه ليخلف أباه في الحكم، الإخوان المسلمون هم الجماعة المحظورة الممولة للإرهاب، بعد الثورة أصبح مبارك فاسدًا وابنه أكثر فسادًا، أصبحت الثورة مجيدة، الثوار قمة الوطنية، ثم تحوَّل الثوار إلى بلطجية، يهددون الأمن والاستقرار والاقتصاد، يرفضون الانتخابات البرلمانية وعرس الديمقراطية، بعد نجاح الإخوان المسلمين

بمجلسي الشعب والشورى أصبحوا السلطة الشرعية، يشيد بعظمتهم وتاريخهم الوطني، ومعاناتهم في السجون كمعارضة شريفة، لا يخاف على الإطلاق من الدولة الدينية بمرجعية مدنية، ثم سرعان ما انقلب على الإخوان ليُغازل السلفيين، والمجلس العسكري، والرُّوحانية الصوفية والرئيس القادم، الذي يبني الدولة المدنية الحديثة، ويبعد عن مصر شبح الإخوان وطيور الظلام.

ليس كاتبًا واحدًا بل الأغلبية، ظاهرة خطيرة في كل عهد، يسيطرون على المقالات والأعمدة، ويغسلون الأدمغة، يربطهم أخطبوط من المصالح الاقتصادية، وروابط اجتماعية وصِلات الرَّحم، منذ عهد الملك والإقطاع إلى الطبقة الثورية العسكرية، والقطاع العام والرأسمالية الوطنية، والقطاع الخاص غير المستغل، وشركات الاستيراد والتصدير والقطط السمان والسوق الحرة والبورصة.

المرونة والواقعية نوع من الحكمة، لكن هناك فرقًا كبيرًا بين الحِكمة والخدعة، بين المرونة والتلُّون، بين الصندوق والانتخابات الحرة النزيهة.

الدستور أو القانون العادل هو الحَكَم بين السلطات والطبقات والأفراد، لكن كم من دساتير وقوانين عادلة تظل حبرًا على ورق؛ لأن السلطة التنفيذية غير عادلة؛ لأن الطبقة الحاكمة تنفرد بالسلطات الأربعة.

فما هذه الضجة حول الجمعية التأسيسية للدستور والتحرُّش الجنسي؟

ألا تتغير قواعد اللعبة الديمقراطية التي يقدسونها؟ وتتحول من الصندوق إلى ثورة العقل والضمير؟

هل أنتخب رئيسًا لا يمتلك الشجاعة؟

مَن تختار رئيسًا للدولة مِن بين المرشحين؟ طرحت هذا السؤال على مجموعة من الشباب والشابات.

أجاب ١٤ شابًّا وشابةً بكلمة «لا أحد»، ثلاثة اختاروا «خالد علي»، اثنان اختاروا «أبو الفتوح»، واحد فقط اختار «عمرو موسى»، ودار الحوار:

قال توفيق: «أختار «خالد علي»؛ لأنه كان ضد نظام مبارك قبل الثورة، وليس بعد نجاحها فقط، دافع «خالد علي» عن الكثير من الأبرياء، في قضايا تم تلفيقها ضدهم، بواسطة النظام السابق وأتباعه من التيارات الدينية، ودافع عنكِ أيضًا يا دكتورة نوال، في قضية الرأي التي رُفِعَت ضِدَّك عام ٢٠٠٧م، وصدر الحكم ببراءتك في عام ٢٠٠٨م، هذا بالإضافة إلى مشاركته بالثورة وتمسكه بمبادئها: عيش حرية كرامة إنسانية عدالة اجتماعية.»

وقال سعيد: «خالد علي» يذكر حقوق النساء في حين يتهرب الآخرون من نطق كلمة امرأة كأنها عورة.

وقال فتحي: «خالد علي» لا يتملَّق أي تيار في الساحة، ويُعلن صراحةً دون مراوغة أنه ضد الدولة الدينية ومع الدولة المدنية.

وقال محمد: «أبو الفتوح» يُعلن أنه مع الدولة المدنية، وكذلك «عمرو موسى»، ثم إن «خالد علي» يدافع عن السلفيين الذين يحتقرون المرأة.

وقالت سامية: كلهم يتجاهلون حقوق النساء، أو يضعونها في مرتبة أدنى من حقوق الأقليات، ثلاثة ملايين في النوبة أهم عندهم من أربعين مليون امرأة مصرية، يختزلون حقوق المرأة في عبارات فارغة المعنى، مثل العبارة الموروثة من النظام السابق «تمكين المرأة»، تمكينها من أي شيء؟ كلمات شاعرية جوفاء تُشبه الأغاني في عيد الأم، وليست

بنودًا واضحةً، أو حقوقًا ينص عليها الدستور لتنعكس في كل القوانين، ومنها قانون الأحوال الشخصية.

وقال أسامة: لا أستطيع أن أنتخب رئيسًا يناقض نفسه أو يفتقد الشجاعة للتعبير عن رأيه، كلهم يؤيدون الدولة المدنية، ثم يناقضون أنفسهم، ويتمسكون بالمادة الثانية في الدستور التي تنص على أن دين الدولة هو الإسلام، وأن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع، هذه المادة أدخلها السادات لتصعيد الإخوان والسلفيين وضرب الناصريين.

وقالت فاطمة: مبادئ الشريعة الإسلامية تختلف حسب المذاهب والنظم السياسية الحاكمة، من السعودية إلى تونس إلى إندونيسيا إلى تركيا وأفغانستان وغيرها، هذا تناقض في الدستور وتملُّق للتيارات الإسلامية، المفروض أن مبادئ الإسلام لا تختلف عن مبادئ المسيحية، من حيث العدل والحرية والكرامة والمساواة بين البشر، المفروض أن يعبر الدستور عن الجميع، وليس فقط عنا نحن المسلمين.

هل ترى العين نفسها؟

تصاعُد قوى التيارات الدينية السياسية ظاهرة «عالمية» تشمل جميع الأديان اليهودية والمسيحية والإسلامية، وغيرها، أطلق عليها الأكاديميون اسم التيارات «الأصولية الدينية» أو الراديكالية (الجذرية)، وهي تسمية غير علمية وغير صحيحة، مشكلة هذه التيارات ليست في عودتها إلى الأصول أو الجذور، بل مشكلتها هي جمودها الفكري، وتشبُّثها بحَرفية النصوص الواردة في التوراة أو الإنجيل أو القرآن.

في الولايات المتحدة الأمريكية استمر تصاعُد القُوى المسيحية اليهودية منذ عهد رونالد ريجان حتى أوباما، وسيطرت على السياسة والاقتصاد والإعلام والتعليم، لحماية مصالح الرأسمالية الاستعمارية الحاكمة.

في بلادنا استمر تصاعُد التيارات الإسلامية السياسية (منذ عهد السادات وريجان)، وسيطرت على السياسة والاقتصاد والإعلام والتعليم، لحماية مصالح القِلَّة الرأسمالية الحاكمة، التابعة للاستعمار الأمريكي الإسرائيلي.

تتشابه هذه التيارات الدينية السياسية رغم اختلاف الأديان في سعيها للسلطة والمال، وازدواجيتها الأخلاقية، وجمودها الفكري، وتمسُّكها بحَرفية النصوص الدينية من نوع: المسيح سيعود جسديًّا حسب سِفر الرؤيا «يوحنا»، أو النساء ورثن الخطيئة عن أمهن حواء الآثمة، أو أن الله وعد بني إسرائيل بأرض كنعان حسب الآية في التوراة، ويُروِّجون لما يسمُّونه «الهوية الأصلية»، القومية الإسرائيلية، والقومية الأمريكية مع الكتاب المقدس.

في بلادنا استمر تصاعد التيارات الإسلامية السياسية منذ عهد السادات ومبارك حتى اليوم، رغم قيام الثورة، تتمسَّك هذه التيارات بحَرفية النصوص في القرآن، وتفسيرها حسب مصالح حزبهم الديني، وأغلبهم من الضالعين في السوق الرأسمالية والنفطية، تربوا

(مثل التيارات الأخرى المسيحية واليهودية) على احتقار بنات حواء، وكراهية الأجانب من قوميات وأديان أخرى.

هناك الكثير من الأفكار الواردة في كل الأديان التي تسقط مع التقدُّم الإنساني، مثل «الرِّق»، الذي ورد في أغلب الكتب الدينية، منها التوراة والإنجيل والقرآن، لكن تم تحريم الرِّق في كل البلاد بالقوانين العالمية المدنيَّة.

ويتبادل معتنقو المذاهب والأديان كراهية الآخر، يرى التيار المسيحي اليهودي نفسه متحضرًا ديمقراطيًّا، ويتهم التيار الإسلامي أنه مُتطرِّف متحجِّر يُعادي العلم والتحضُّر والديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق النساء.

ويرى التيار الإسلامي نفسه ثوريًّا أخلاقيًّا يحمي الفضيلة، أما الغرب فهو عدو الإسلام مُنحل الأخلاق، يقوم على تعرية النساء والشذوذ الجنسي. إنها الرؤية الأُحادية التي ترفع «الأنا» إلى السماء، وتهبط بالآخرين إلى الحضيض.

تتشابه أقوال هذه التيارات الدينية السياسية في كل بلاد العالم، كلٌّ ينظر إلى نفسه باعتباره القابض على كلمة الله، العين لا ترى نفسها هذه بَدَهيَّة، فهل تستمر هذه التيارات الدينية السياسية في عدم إدراكها؟

إثارة الجدل وخطاب رئيس الدولة

الخطاب الأول الذي ألقاه الرئيس المصري الجديد د. محمد مرسي ينم عن التفكير اليقيني الديني، رغم أنه قدم استقالته من جماعة الإخوان المسلمين والحزب التابع لها، لكن الاستقالة الحزبية أو السياسية لا تعني الاستقالة الفكريَّة، أو التخلِّي عن تحيُّزه لقيم ومفاهيم الجماعة والحزب، لغة الخطاب دينية إسلامية، لم يرد فيها كلمة المواطنة، التي تعني عدم التفرقة الدينية والجنسية، قال: «أهلي وعشيرتي.» وتعني ارتفاع قرابة الدم وصِلات الرَّحم على المواطنة والقانون والدستور، وقال: إخواني، كأنما المجتمع كله ذكور، وليس نصفه نساء.

يدعم كلامه بالآيات القرآنية، لماذا؟ بنود الدستور تنفصل عن القرآن والإنجيل في الدول الحديثة، ويقتبس من خطبة لأبي بكر الصِّديق أول الخلفاء الراشدين عبارة «وُلِّيت عليكم» كلمة الولاية ماذا تعني؟ انتهى عصر ولاية الحاكم، وانفصلت السُّلطة القضائية عن التشريعية عن التنفيذية، وكان الحاكم الوالي يجمع هذه السلطات في يده، كلمة «الله» كررها أربعة وثلاثين مرةً في خطابه، لماذا إدخال الله في خطاب سياسي لرئيس دولة؟ هل يمكن مناقشة الله سياسيًّا؟

لم يشمل الخطاب شيئًا عن التعليم أو الثقافة أو حرية البحث العلمي والإبداع الفكري والفني، هل هي أمور هامشيَّة؟

مشكلات مصر أو أي بلد لا يحلُّها الفرد، لا أومن بالزعيم الأوحد أو المهدي المُنتظَر، لقد قُمنا كشعب نساءً ورجالًا بثورة عظيمة منذ يناير ٢٠١١م، وأسقطنا رأس النظام، إلا أن جسد النظام لا يزال قائمًا في كل مؤسسات الدولة والبيت والجامع والكنيسة والمدرسة.

إن تخلُّفنا كبلاد عربية، ومنها مصر، يرجع إلى أننا توقَّفنا، منذ قرون، عن إنتاج المعرفة والعلم والإبداع، أصبحنا مُستهلِكين لما يُنتجه الآخرون في بلاد أخرى، لعب الاستعمار الخارجي مع الاستبداد الداخلي دورًا رئيسيًّا في تخلُّفنا وفي تجميد الفكر.

هناك أسباب في كل المجالات تعوق تقدُّمنا، أهمها في رأيي هو المجال الفكري، المتعلِّق بالعقل والتعليم والمعرفة والإبداع.

في الانتخابات الرئاسية في مصر عام ٢٠٠٥م، رشَّحت اسمي ضد حسني مبارك، كان البند الأول في برنامجي تغيير نظام التعليم العقيم الذي يُخضع العقل للاستبداد والعبودية تحت اسم فضيلة الطاعة.

لم يكن عندنا انتخابات ديمقراطية، بل انتخابات صورية لينجح الرئيس بأغلبية مُطلَقة، رفضت أن ألعب دور الكومبارس، وأشارك في لعبة الانتخابات لإثبات ديمقراطية مُزيفة، أعلنت انسحابي، وأصدرت بيانًا بكل هذه الأسباب.

لا أظن أن الانتخابات أصبحت متعددة أو ديمقراطية، فالانتخابات تعكس عقلية الفرد والمجتمع، الديمقراطية تبدأ في البيت والمدرسة، وليست مجرد قرار سياسي، لا تزال القيم في بلادنا دكتاتورية أُحادية لا تؤمن بالتعددية أو الاختلاف، يقوم التعليم في بلادنا على السمع والطاعة واليقين والتخويف.

تصوَّرت في طفولتي أن زميلتي القبطية ستُحرق في نار جهنم؛ لأنها ليست مثلي مسلمة، أمي قالت لي: «ليس هناك نار.» كسرت أمي حاجز الخوف في عقلي، ولعبت دورًا في تغيير نظرتي للعالم كله، وليس فقط لزميلتي القبطية. لم يعُد العالم في نظري هو مصر أو الإسلام فقط، بل أصبح بلادًا عديدة متعددة الهويات والأديان والعقائد والألوان، اكتشفت أني أيضًا كفرد، متعددة الهويات والأديان والألوان، دمائي مختلطة وليست إسلامية أو مصرية أو عربية فقط، بل مزيج من الدماء المتجددة المتنوعة عبر السنين والقرون والأجداد والجدات. هذا ينطبق على كل الناس، لا توجد هوية نقية إلا في الفكر العنصري الذي يؤمن بنقاء الدم، لا توجد حضارة نقية، كل الحضارات مختلطة، شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا.

التعليم في مدارسنا قائم على النصوص اليقينية، وهو ما يؤدي إلى التعصُّب لعلاقات الدم والقبيلة، لا يؤدي إلى فتح الأفق على معارف متعددة، ويؤثر سلبيًّا في سلوك المجتمع والفرد تجاه المعرفة الإبداعية في العلوم والفنون والعلاقات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

البناء العام للعقل في بلادنا يستند إلى التلقين والحفظ والتبعية الفكرية، في العلوم والآداب والفنون، وفي التعليم الديني، الذي يقوم على النصوص النهائية غير القابلة للنقاش، ويؤدي إلى القيود على التفكير العلمي أو الفني أو الإبداعي، والحد أيضًا من حرية السلوك والتصرُّف في مواجهة المشكلات التي تواجه الفرد أو المجتمع.

إن حرية التفكير والسلوك والعمل الإبداعي العلمي والاجتماعي هي التي تقود إلى شخصيات متطورة أخلاقيًّا وإنسانيًّا، وبالتالي إلى مجتمعات أفضل وأرقى.

هذه بَدهيات وقواعد منطقية يمكن للأطفال إدراكها إن ارتكز التعليم على قوانين علمية قابلة للنقد والنقاش، وليس نصوصًا مُقدَّسة، لهذا أعتقد أن خطاب الرئيس المصري الجديد لم يختلف عن الخطابات السابقة في العهود الدكتاتورية.

الشك هو أساس الجدل والتفكير الحر، دون أن يمتلك الإنسان المصري والعربي شجاعة الشك والقدرة على الجدل والنقاش، فلن تتقدَّم بلادنا، ولن نشارك في إبداع العلم والفكر الجديد، الفكر اليقيني يكره الشك أو الجدل، يصِم المفكرين المبدعين النساء والرجال بالكُفر، أو على الأقل بإثارة الجدل، كأنما الجدل عورة يجب تحجيبها.

تحت غطاء الصندوق ... العدالة عمياء

سأقول لكم، دون النظر لمؤيدي الدولة الدينية أو مؤيدي الدولة المدنية، أو ما بينهما، نعم، غابت الحقيقة الساطعة كالشمس، تحت دخان المباخر وتعاويذ الملائكة والشياطين، وأوراق رجال القانون والدين والسياسة والائتلافات ونظريات الأحزاب.

محاكمة القرن في مصر (يونيو ٢٠١٢م) تُشبه محاكمة «فرانس كافكا» في القرن الماضي، لا ترى وجه القاتل من شدة الضباب في القصر، وينتهي الأمر بأن يصبح المقتول في الشارع هو القاتل داخل القصر، باعتبار أن العدالة عمياء لا ترى الحقيقة، والقانون هو الحكم العادل حسب الدستور.

هل هناك حقيقة أكثر وضوحًا من دم الشعب المسفوح في الشوارع والميادين، والأنوف المخلوعة والعيون المفقوءة بالآلاف، والأمهات الثكالى بأبنائهن القتلى والمفقودين، والأطفال الجوعى في الشوارع بالملايين؟

الحقيقة هي الدم والأجساد في الشوارع، وليس الحبر على الورق في حقائب المحامين ودوسيهات القضاة ودواليب المحكمة وسراديب القانون.

في كل عهد هناك المُقدَّس والمُدنَّس.

القوة الحاكمة السياسية هي التي تحدد للشعب ما هو المقدس وما هو المُدنَّس، ما هو القانوني وغير القانوني، ما هو الشرعي وغير الشرعي.

أما الحقيقة فهي تُدفَن في التاريخ، حتى يملك الشعب كتابة التاريخ بنفسه، حتى تملك الأم المنكوبة القلم، وتكتب بنفسها تاريخ حياتها.

لكن الأمهات المنكوبات أو الشعوب لا تملك كتابة التاريخ دون أن تتعلم الكتابة، وكم من شعوب تُدفَن في التاريخ؛ لأنها لم تعلِّم نفسها، واعتمدت في تعليمها على القوى الحاكمة،

تندثر بعض الشعوب كما انقرضت الديناصورات؛ لأنها لم تكتب تاريخها؛ لأنها لم تتعلم الحرية والعدالة والكرامة منذ الولادة.

التعليم هو الجهاز البوليسي لإخضاع العقول للحُكم القائم، وقبول الظلم باعتباره العدل، تتحول التناقضات إلى مقدَّسات، تصبح الطاعة فضيلة، والعبودية قمة الأخلاق، والعدالة تصبح عمياء تحت اسم القانون الحاكم.

يقول الحاكم: أنا الإله الذي يحكم بالعدل، أنا الحقيقة ومن لا يراني فهو كافر أو خائن للوطن، غابت الأدلة المادية والبراهين الموضوعية، غاب المنطق والبَدهيات، وأصدرت المحكمة حُكمَها بقوة القانون المزدوج.

منذ نشوء العبودية حتى اليوم تحكمنا قوانين مزدوجة، مرورًا بالعصور الملكية والجمهورية، حتى عهد مبارك والمجلس العسكري الحاكم من بعده، ومعه القوى السياسية الطافية فوق السطح، الوجوه المزدوجة، تدربوا على التناقض باسم الحكمة أو القانون أو الدين أو السياسة، العلماء والفقهاء والحكماء، الأساتذة في الجامعات والمدارس، يُعلِّمون الأطفال الطاعة لرب العائلة في الدولة والبيت، «من علَّمك حرفًا صِرت له عبدًا»، «اليد التي تُطعمك الثمها وقبِّلها»، يتعلم الأطفال المهانة والذل والنفاق للسلطة، وأنا أقول لك أيها الإنسان المصري المولود بعد الثورة، الطفل أو الشاب أو الشابة في أي عمر، لا تصبح عبدًا لأي مُعلِّم أو حاكم أو رب عائلة، لا تنحنِ لتقبيل أي يد، اليد التي تُطعمك لو أهانتك اضربها، نعم اضرب اليد التي تطعمك لو فرضت عليك الطاعة أو العبودية، هذا أول درس في الكرامة، لا تنكسر عينك لمن يعطيك المصروف.

رأيت في طفولتي الفلاحين يُقبِّلون يد العُمدة الذي يسرقهم، ورأيت الطفل يُقبِّل يد الأب الذي يجلده، لكني سمعت أبي يقول لنا ولغيرنا من الأطفال: «طاعة الحاكم رذيلة، وليست فضيلة، وتقبيل اليد التي تُطعمك في البيت أو الدولة عبودية.»

بعد الثورة المصرية التي أسقطت رأس النظام (وبقي جسد النظام قائمًا نشطًا في جميع المؤسسات) يُطالبنا الحُكَّام الجُدد في الحكومة والمعارضة بالتسليم بنتائج الصندوق ومُحاكمة القرن، يتهمون من يقاطع الانتخابات أنه كافر بالديمقراطية، ومن يرفض حُكم المحكمة (محاكمة مبارك وأعوانه) أنه ضد العدالة والقانون.

في الخامسة من عمري سمعت العُمدة، القابض بيديه على كتاب الله يقول للفلاحين الثائرين ضد الملك والإنجليز: «يا كفرة، لا تعرفون الله، يا جهلة يا أُميين، لم تقرءوا كتاب الله.» قال له الفلاح الفصيح: «يا عُمدة، الله هو العدل عرفناه بالعقل، وليس الله كتابًا يخرج من المطبعة.»

الشلل السياسية والدينية والأدبية الجاهزة في كل عهد، التقليدية والحديثة، من الطبقات المستريحة في بيوتهم المتينة، الصامدة في وجه الرياح والعواصف، يقطفون ثمار أشجار لم يزرعوها، وثمار ثورات لم يذرفوا فيها دمعة عين أو قطرة دم، يملكون الثقافة والتعليم والإعلام والأدب والدين والطب والكتب (منها كتب الله)، سرعان ما يجعلون أنفسهم بعد الثورة، وسطاء بين الحاكم الجديد والشعب الثائر، يُعيِّنون أبناءهم وبناتهم في المناصب المعروضة، والتكتلات المُتاحة والأحزاب الجديدة، المُفصَّلة عليهم والمطيعين والمريدين والأتباع، يجتمعون من وراء الأبواب المغلقة في القاعات النظيفة، بعيدًا عن زبالة الشارع، وميدان التحرير، بعيدًا عن رائحة عرق الجوعى والأطفال، والأمهات الراقدات فوق الأسفلت، المقتولات في الحر والبرد، دم أبنائهن شربه التراب والطين، عيونهن نزفت وجفَّت وتقيَّحت، والعيون النضرة تلمع بالنجاح والأمان، تتلصص من وراء نوافذ سياراتهم المغلقة بإحكام، يصدرون ما يكتبون من وثائق أو بيانات إلى أبواق الإعلام، باعتبارهم مندوبي الشعب والثورة، يقولون: «الثورة المجيدة» و«الانتخابات التاريخية غير المسبوقة»، «الصندوق مُقدَّس»، و«القضاء شامخ مستقل»، ثم يتمطع الجبل فيلد فأرًا، وتتمخَّض المحكمة عن حرباء صفراء رمادية بلا لون، تبدو الإدانة كالبراءة أو نصف البراءة، والسجن المؤبد كالإفراج المؤقت أو نصف الدائم، كل شيء زائل إلا وجه ربك، تغيب الحقيقة الساطعة كالشمس، تنطلق الأبخرة والتعاويذ من المؤمنين وغير المؤمنين، يتمشى الحُكَّام الجُدد بأروابهم القشيبة، مُختالين بالحكمة الإلهية وقداسة القانون.

العدالة عمياء، لا ترى الحقيقة.

بعصا موسى السحرية

يثور الشعب المصري بحق ضد إسرائيل، بسبب اعتدائها على شعوب مُسالمة، واغتصابها أرضًا ليست أرضها، في مصر وفلسطين وسوريا والأردن، بسبب قتلها جنودًا وضباطًا مصريين عند الحدود لم يعتدوا عليها، تستخدم إسرائيل في حربها ضدنا السلاح العسكري الأمريكي الأوروبي الحديث، تستخدم الاكتشافات العلمية الجديدة في الانتصار والهيمنة على المنطقة كلها سياسيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا وتعليميًّا وإعلاميًّا، المعركة بيننا وبين إسرائيل معركة مادية عسكرية علمية سياسية، وليست معركة دينية، إسرائيل هي مندوبة الاستعمار الأمريكي الأوروبي في بلادنا، هذه الحقائق معروفة للشعوب، منها الشعب المصري، الذي يُدرك تمامًا أن سيناء هي جزء من أرض مصر، ومن حق مصر أن تدافع عن سيناء بالوسائل العلمية المادية نفسها التي تستخدمها إسرائيل ضدنا، هذا هو المنطق البَدهي، أي العدل البَدهي، الذي يفهمه أغلب الناس، إلا القِلَّة القليلة من النخب العربية والمصرية، التي تتواطأ في الخفاء مع إسرائيل وأنظمة عربية تخدمها، وتستخدم أفرادًا من هذه النُّخب للتمويه والتغطية على الحقائق المادية بحجج دينية، وتحويل الصراع بيننا وإسرائيل إلى صراع ديني، يدخل الله ذاته في هذه المعركة مع المسلمين ضد الكفار.

في جريدة مصرية قومية كُبرى قرأنا لكاتب من النُّخبة، يحمل لقب الكاتب الكبير في عصر السادات ومبارك وعصر ما بعد الثورة، كان ساداتيًّا ثم مباركيًّا ثم مناضلًا وطنيًّا صبغ شعره، وأصبح شابًّا ثوريًّا بـ «نيو لوك» من رموز المعارضة الشُّرفاء، وعضو مؤسس في الحزب الثوري الديمقراطي الجديد، يملك هذا الكاتب الكبير حتى اليوم عددًا من الأعمدة اليومية في أهم الصحف المصرية والعربية، الحكومية والمستقلة والمعارضة، يُطِل وجهه كثيرًا من الشاشات والأقمار الصناعية، يُطلق الفتاوى في أمور السياسة والدين،

والحرب والسِّلم، والاقتصاد والبورصة، والجنس والأخلاق، باعتباره المُفكِّر العظيم الذي يُشكِّل الرأي العام.

نشر هذا الكاتب الكبير في عموده اليومي مقالًا طويلًا، يدعم به خزعبلات بعض الجماعات الدينية السائدة هذه الأيام، بعضهم لا يعرف القراءة، ويجهل التاريخ والأديان والسياسة والاجتماع، فما بال علم الحرب والأسلحة النووية!

كتب في عموده: «إن سلاحنا ضد إسرائيل هو كتاب الله الكريم، هو مضاعفة جرعات الدين في المدارس، وأن نُعلِّم الأطفال الإيمان بالله، والاعتماد عليه سبحانه في السِّلم والحرب. أليس الله هو الذي نصر بني إسرائيل على فرعون الكافر؟ فأوحى إلى سيدنا موسى — عليه السلام — أن يخرج بقومه، كانوا عدة آلاف، مُتجهين إلى سيناء، فلما عرف فرعون بذلك جمع جيشًا كبيرًا قاده بنفسه لمطاردتهم، وأمام البحر الأحمر، عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات توقف سيدنا موسى حائرًا خائفًا من أن يلحق بهم فرعون، ويقضي عليهم، لكنه رغم خوفه كان واثقًا من أن الله يُحارب معه، وتحققت ثقة سيدنا موسى في رب بني إسرائيل، فما إن اقترب جيش فرعون، وظهرت أعلامه وأوشك أن يقضي على موسى وقومه، حتى جاء وحي الله إلى موسى، فضرب البحر بعصاه، فانفلق البحر نصفين، وظهر طريق من اليابسة وسط الماء، عبره بنو إسرائيل وموسى سيرًا على أقدامهم، حتى وصلوا إلى بر الأمان في سيناء.

حين وصل فرعون وجيشه كان البحر ما زال مفلوقًا نصفين، وبنو إسرائيل وموسى قد عبروا سالمين إلى الشاطئ الآخر، بالطبع لم يفكِّر فرعون في معجزة رب موسى وبني إسرائيل؛ لأنه كان كافرًا، فنزل فرعون وجيشه إلى الطريق الأرضي وسط البحر، حتى أصبحوا في منتصف الطريق، هنا أصدر الله أمره إلى البحر، فعاد البحر كما كان، وانطبقت مياهه على فرعون وجيشه، فغرقوا جميعًا وماتوا، نجا بنو إسرائيل من الغرق بسبب إيمانهم واعتمادهم على الله، لكنهم سرعان ما تشككوا كعادتهم، وطلبوا من سيدنا موسى براهين أخرى على أن الله يقف معهم ضد أعدائهم، طالبوه أيضًا بأن يأتيهم من عند ربه بالوصايا والأوامر التي تُنقذهم من التيه، وصعد موسى إلى الجبل يُناجي ربه، ويطلب لقاءه، لكن ربه اشترط عليه قبل لقائه أن يصوم ثلاثين يومًا، وفعلًا صام موسى ٣٠ يومًا، لكنه بعد الصيام اكتشف أن رائحة فمه منفِّرة، فاستخدم من لحاء الشجر سواكًا ليطهِّر فمه قبل أن يلقى الله، لكن الله أمره بأن يصوم عشرة أيام أخرى قبل أن يُقابله ودون تغيير رائحة فمه، وذهب موسى إلى موعده مع الله على جبل الطور في سيناء، هذه هي سيناء المُقدَّسة أرض المعجزات أيها القراء الأعزاء.»

قرأت هذا العمود بعد يومين من مقتل الجنود المصريين على الحدود بواسطة الجيش الإسرائيلي، لم أفهم من مقال الكاتب الكبير شيئًا مفيدًا، وما أثر مثل هذا الكلام على الرأي العام في هذا الوقت بالذات؟ هل يفسر الدين بطريقة القوى الدينية السياسية المراوغة؟ هل يزايد عليها ويُعلن أن الله سوف يحارب إسرائيل كما حارب فرعون؟ هل يحاول صرف الشعب أو الجيش عن المقاومة الحقيقية بدلًا من هذا الكلام غير المجدي عن الماضي السحيق؟ لماذا لم يتكلم عمَّا نُعانيه في الحاضر من أجل توعية الرأي العام؟ لماذا لم يشرح الأسباب التي دعت إسرائيل لقتل الجنود المصريين؟ هذا هو واجب النخبة التي تحتل الأعمدة في الصحف والإعلام، أن توضح للرأي العام الجرائم التي تقترفها إسرائيل ضد مصر وفلسطين وغيرهما من الشعوب، أن تكشف المخطط الصهيوني الأمريكي لنهب البترول وموارد المنطقة المادية، أن توضح للشعب المصري وسائل المقاومة السياسية والعلمية والثقافية، وفي كل مجالات الحياة العامة والخاصة، وكيفية تجميع الجهود وتوحيد القوى الشعبية والرسمية أيضًا، استعدادًا للمقاومة العسكرية إن لزم الأمر في الوقت الذي نختاره، كيفية تنظيم المظاهرات لتكون أداة سياسية فعَّالة داخليًّا وخارجيًّا، كيف يمكن تطوير وسائل الدفاع عن وطننا علميًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا وتعليميًّا وعسكريًّا أيضًا. أصبحت الشعوب والجيوش في عصرنا الحديث تنتصر على أعدائها بالأسلحة المتطورة الحديثة، وليس بعصا موسى السحرية.

والسؤال هو: هل نشر الكاتب الكبير عموده الطويل بسبب الغفلة أو الجهل؟ ولماذا يحتل الجهلاء أهم المساحات في الصحف والإعلام كما احتلوها في عصر مبارك والسادات؟ هذا مُجرَّد مثال واحد للعراقيل التي تواجه الثورة، التي يجب حمايتها بكشف الجهل السائد لدى النُّخبة، أو تعاونهم المراوغ مع الأعداء وفلول النظام.

العقل الجمعي والموروث المجتمعي

مآسي الشعب تمرُّ دون انتباه، الإعلام أصابته حُمَّى الانتخابات، أصبحت الانتخابات هدفًا في حد ذاتها، ومقعد الحكم هدف في حد ذاته، الكل يتنافس على خدمة مصر، ومن أجل الشعب المصري لا ينامون الليل، وينفقون الأموال بالملايين على الدعاية الهوائية، لا أدري متى يمكن أن نقطع الحبل السُّرِّي بين الانتخابات والديمقراطية؟! وهل يمكن تحقيق الديمقراطية بتغيير وجه رئيس الدولة والنظام الحاكم كما هو، والدستور لم يتغير؟ والتعليم والثقافة والإعلام لم يتغير فيهم شيء، العقلية لا تزال مغلقة على الموروثات، والعبودية راسخة في النفوس والمؤسسات.

من أجل الشعب المصري يتصارعون، والشعب المصري خارج هذه اللعبة الانتخابية، الشعب المصري خارج السياسة، ومن هو الشعب المصري؟

مأساة طفل مصري، كتبت عنها الصحف، لم أقرأ ردًّا أو تعليقًا واحدًا من المتنافسين على خدمة الشعب، أو أحد من النشطاء السياسيين أو الاجتماعيين، مرَّ الخبر كأن لم يكن، واستمرت حُمَّى الانتخابات، واستمر الناس في حياتهم دون أن يُدركهم الوعي، أو تتحرك خليَّة واحدة في مخهم ليفكروا، يتصارعون من أجل الحصول على الخبز والغاز والسكر والشاي والمعسِّل، يأتي «المعسِّل» أولًا، لزوم الرجولة، المعسِّل أهم من الخبز لأطفالهم ونسائهم، فالرجولة هي حياة الرجل، من يفقد رجولته كمن يفقد حياته وأكثر.

الطفل محمد عمرو (عُمره سنة ونصف) فقد عضوًا من جسده، أهم عضو في نظر الناس، العضو المختص بالرجولة والإنجاب، يمكن أن يفقد الرجل كبده، أو ساقيه أو عينيه الاثنتين، ويظل رجلًا كامل الرجولة، لكن أن يفقد هذا العضو! فهذه هي الكارثة الكبرى في نظر نفسه والمجتمع.

ولد الطفل محمد بصحة جيدة كامل الجسد في كرداسة عام ٢٠١٠م، لكن جهل الأب والأم أفقده الصحة والفرح، وأصبح طفلًا مُعاقًا حزينًا ناقص الجسد، فاقد الرجولة كما يقول عنه الناس، لماذا؟

لأن الطبيب قطع عضوه الطفولي الصغير مع الغُرلة أثناء ختانه.

والدة نبي اليهود «موسى» لم تختن طفلها، فغضب عليها الرب، حتى أمسكت حجرًا وقطعت غرلة الطفل، تقول التوراة: هدأ غضب الرب حين رأى الدم ينزف من جسد الطفل، وأصبح العهد المقدَّس بين الرب وشعبه المختار أن يقطعوا غرلة أطفالهم الذكور مقابل الأرض الموعودة (فلسطين).

ارتفع وعي الشعب اليهودي، وأبطل الكثير من الموروثات، ومنها عمليات ختان الأطفال الذكور، حرصًا على الصحة الجسدية والنفسية والاجتماعية للرجال، لكن الشعب المصري لم يدركه الوعي بعد بمخاطر هذه العمليات؛ لأن القليل من الأطباء يمتلك هذه المعرفة الجديدة، وإن ملكها فهو لا يملك الشجاعة لتبنِّي قضية حساسة تتعلق بقطاع من الشعب (الأطفال) ليس لهم أصوات في الانتخابات.

الأب والأم لهذا الطفل المسكين، مثل الملايين من الشعب المصري يُقدمون على تعريض حياة أطفالهم للخطر، تحت اسم عملية «الطهارة» عمليات جراحية تودي بحياتهم، أو تسبب لهم عجزًا أو عاهة أو مشكلة جسدية أو نفسية تبقى معهم حتى الموت.

هناك صمت كبير حول هذه الأمور، إلا النادر القليل.

الطبيب في كرداسة، مسقط رأس الطفل، قطع بالمشرط عضو الطفل، كان يريد قطع الغرلة فقط، لكنه جاهل أو ضعيف البصر أو غير متمرن، في كلية الطب لم نتدرب على إجراء عليمات الختان، فهي عمليات صغيرة ينظر إليها الأطباء شذرًا، ويتركونها للممرضات أو الممرضين وحلاقي الصحة. يقوم الطبيب الجراح المحترم بعمليات كبيرة لاستئصال الكلية أو الكبد أو المعدة أو الطحال أو المخ.

العقل الجمعي البشري يتطور ببطء شديد بالنسبة لعُمر الإنسان، الحكومات والدول تقوم على التحكم في العقل لإخضاع الإنسان للقهر.

تقول الصحف المصرية إن الأب تقدم ببلاغ إلى نيابة كرداسة يتهم الطبيب بالخطأ، لكن النيابة أهملت البلاغ، تحت الإيمان بأن خطأ الطبيب إصابة الأقدار. بمعنى أن خطأ الطبيب هو إرادة الله. حاول الطبيب اتهام الأب بالكفر وعدم الإيمان بالله، ذهب الأب إلى النيابة، صدقت النيابة الطبيب؛ لأنه متعلم من طبقة محترمة، لم تصدق الأب، رجل الشارع، الذي لا قيمة له (مثل باقي الشعب) إلا في خُطب المرشحين في الانتخابات.

الأب الفقير أراد أن يفرح بابنه، فطلب من الطبيب إجراء العملية قبل مجيء العيد، طلب الطبيب من الأب والأم مغادرة غرفة العمليات، حتى لا يروا مأساة الطفل، وعادت الأسرة بطفلها إلى البيت، الذي أصبح مريضًا بالحمى يصرخ بالألم، اتصل الأب بالطبيب الذي قال له: «ده شيء عادي.» لكن تدهور حالة الطفل جعل الأب يستشير طبيبًا آخر، والذي كشف الحقيقة المروِّعة، أن الطفل فقد العضو كله في عملية الختان، وأن إنقاذ حياة الطفل يتكلف عشرة آلاف جنيه لإجراء عمليات أخرى، منها أولًا عمل قسطرة للطفل للتخلص من بوله وبرازه، ذهب الأب الفقير إلى مستشفى قصر العيني المجاني، حيث أصبح الطفل مادة للتدريس لطلبة الطب، بعدها فقد الأب والأطباء الأمل في شفاء الطفل.

تم تجريم ختان البنات في مصر قانونًا عام ٢٠٠٨م، بعد تعرُّض بعض البنات للنزيف حتى الموت أثناء العملية، منهن الطفلة «بدور» التي كتبت عنها سابقًا، لكن ختان الأطفال الذكور مستمر حتى اليوم، رغم مآسي الأطفال التي تمر دون انتباه.

من المُفجع أن هناك من يريدون العودة بنا إلى الوراء، وإباحة ختان البنات مجددًا، تحت اسم الحفاظ على أخلاقهن.

هل نكتسب الأخلاق الحميدة بالتربية السليمة أم بقطع أجزاء من أجساد الأطفال؟

التوءم ... بوش وابن لادن

بعيدًا عن الوطن بعشرة آلاف ميل لا أشعر بتغيُّر كبير في المكان أو الزمان، كل شيء يتشابه، ويختلف أيضًا، على نحو عجيب.

يجول في عقلي هذا السؤال: «إذا تصور الإنسان أنه امتلك الحقيقة هل ينغلق عقله على هذه الحقيقة، ويعجز عن الانفتاح والتفكير في حقائق جديدة؟»

العقل البشري قطعة خام من اللحم نسميها «المخ»، يتشكل ويتطور مثل أي عضو بالجسد، مع التعليم والتدريب والوعي المتزايد.

تطور العقل في بعض المجتمعات القليلة في العالم، أو الجامعات المتقدمة بسبب تطور العلوم والفنون والتعليم والتربية، أصبح الإنسان قادرًا على رؤية حقائق الكون الجديدة دون فزع، دون إشعال الحرائق وقتل الآخرين المخالفين له في الرؤية.

مجتمعات أو جامعات أخرى وقعت قرنًا وراء قرن، وما تزال واقعة حتى اليوم، تحت نير الاستعمار الخارجي والاستبداد الداخلي، مما عطَّلها عن التطور، وأغرقها في ظلام الجهل والفقر والمرض، والتعصب القومي والجنسي والديني والسياسي والاجتماعي والثقافي.

التعصب نوعٌ من العمى يُصيب العقل فلا يفكر الإنسان قبل أن يغضب أو يقتل، أو يسب الآخر، ويتهمه بالإلحاد والكفر.

كلمة الإلحاد أو الكفر، لا وجود لها في هذه المجتمعات أو الجامعات المتطورة؛ إذ لا يدخل الدين عنصرًا في تقسيم الناس إلى مؤمنين وملحدين.

في جامعة ميشيجين دار الحوار في ندوة علمية، تكلم بعض الأساتذة عن الاكتشافات الجديدة في علم الكون، دار الحوار الهادئ دون تشنُّجات أو اتهامات، الطالب كريس سأل الأستاذ الدكتور: «أتقول يا دكتور إن الكون نشأ من اللاشيء؟»

جاءه الرد: «نعم يا كريس، هذا ما اكتشفه العلم أخيرًا.»

– لكن كيف ينشأ الشيء من اللاشيء يا دكتور؟

– اللاشيء لا يعني لا شيء يا كريس، الفراغ ليس فارغًا كما نتصور، بل يحتوي على طاقة قد تكون كبيرة.

– نعم أتصور هذا يا دكتور، فأنا أدرس الإلكترونيات، لكن هل تقصد أن الكون نشأ وحده دون الإله الخالق؟

– نعم أقصد ذلك يا كريس.

– لا أتصور أن يأتي الشيء من العدم يا دكتور، لا أتصور أن الكون يخلق نفسه بنفسه.

– هل تتصور يا كريس أن الله خلق نفسه بنفسه من العدم؟

– نعم يا دكتور.

– لماذا إذًا لا تتصور الشيء ذاته بالنسبة للكون يا كريس؟

سكت الطالب طويلًا في تفكير عميق، كان في القاعة خليط من البشر، من مختلف الأعمار والألوان والأديان والجنسيات والأجناس، يتابعون الحوار في صمت عميق، لم ينهض أحدهم متشنجًا واتهم الأستاذ بالإلحاد.

قال أستاذ هندي من السيخ رأسه ملفوف بعمامة ضخمة: «وهل الكون مثل الله يا دكتور؟ الله قادر على أن يخلق نفسه من العدم؛ لأنه قادر على المعجزات، أليس كذلك؟»

سرت همهمة بين الحاضرين، وقفت طالبة طويلة سمراء من أمريكا الجنوبية، وقالت: «كشف العلم خلال القرنين الماضيين عن الأسباب الحقيقية لما يسمى بالمعجزات السماوية، ألم يتصور الناس أن الأمطار تأتي من عند الله؟»

ودار الحوار دون أن يرتفع صوت بالغضب أو الاحتجاج أو اتهام الآخرين بالإلحاد أو الكفر.

سأل الأستاذ الكاثوليكي رئيس قسم الأديان: «كيف يأتي العدل والصدق والفضائل العليا من منبع غير الله خالق الكون وخالق الفضيلة؟»

ردت عليه طالبة عراقية بهدوء: «الفضائل يا دكتور نتعلمها في البيت والمدرسة، ونكتسبها بالممارسة اليومية، هناك الملايين الذين آمنوا بالله، ومع ذلك قتلوا وفسقوا ونهبوا، منهم أدولف هتلر وجورج بوش الأب والابن والرُّوح القدس.»

وأضاف طالب عراقي: «وصدام حسين.»

سرت همهمات وضحكات مكتومة.

قالت طالبة إيطالية: «الكتاب المقدَّس لا يحكم بفضيلة العدل؛ إذ يقول الله للمرأة: «تشتاقين لزوجك وهو يسود عليك».»

رد طالب مسيحي من السويد: «كلمة يسود عليك لا يعني بها الله السيطرة والقوامة، بل تعني الرعاية والحماية، فالمرأة ينبوع الحنان والعاطفة؛ لهذا يكون اشتياقها أكثر لرجل قوي يحميها ويدافع عنها، كلٌّ منهما يُكمل الآخر، والرجل كما قال الله يترك أباه وأمه ويلتصق بامرأته، فيصيران جسدًا واحدًا، لقد فضَّل الله هنا المرأة عن الرجل؛ لأنه جعله يترك عائلته ويلتصق بها.»

ردت الطالبة الإيطالية: «المرأة أيضًا تترك عائلتها وتلتصق برجلها، لماذا نسي الله هذه الحقيقة؟»

تحمَّس الطالب المسيحي دون انفعال: «الله لا ينسى، الله لا يُفضِّل الرجل عن المرأة في المسيحية، ولا يوجد عندنا تعدُّد زوجات، ولا يحدث الطلاق إلا لِعلَّة الزنا.»

ردت طالبة مسلمة من الباكستان: «القرآن يُحرِّم تعدُّد الزوجات في الجوهر، ويُساوي بين الجنسين في الحقوق والواجبات، بما فيها الطلاق والإرث والنسب، لكن المفسرين للقرآن معظمهم رجال ذكور، تابعون للحكم الاستبدادي فوق الأرض، الكتاب المقدس أيضًا له ترجمات وتفسيرات متعددة مختلفة، حسب نظام الحكم في كل بلد، الدين يتبع السياسة وليس العكس، أليس كذلك؟»

استمر الحوار في جو يتسم بالموضوعية والتفكير الهادئ، ثم خرجنا في الاستراحة لشرب القهوة، على شاشة التلفاز في قاعة الكافيتيريا رأينا رجالًا لهم لحى سوداء طويلة، يحملون أعلامًا سوداء مكتوبًا عليها كلمات قرآنية، يُشعلون النيران في المباني والسيارات، ويصرخون في غضب هيستيري، يطالبون بقتل كل من شارك في صنع الفيلم المسيء للإسلام.

أحسست بغصة ولم أستطع ابتلاع القهوة، أو كوب ماء، كانت الصور من باكستان، والمذيع يقول إن الرعاع من الإسلاميين في الشرق الأوسط ينظمون المظاهرات ضد أمريكا.

قال أحد الأساتذة الأمريكيين: «أمريكا لم تصنع هذا الفيلم، إنهم لا يتظاهرون ضدَّنا، بل ضد الفقر والبطالة وحكامهم المُستبدِّين، ألم يتظاهر الشعب المصري في يناير ٢٠١١م ضد نظام حسني مبارك الفاسد وليس ضد أمريكا، أليس كذلك يا دكتورة نوال؟»

ابتلعت جرعة قهوة مُرَّة كالعلقم وسألته بهدوء: «ومَن كان يدعم نظام مبارك الفاسد يا دكتور؟ أليست هي أمريكا نفسها؟ ومَن كان يدعم هذه التيارات الدينية السياسية من رونالد ريجان إلى جورج بوش إلى هيلاري كلينتون؟»

ثم وجَّهت إليه سؤالي الأثيري: «أليس جورج بوش وابن لادن توءمًا؟»

وانفجرت القاعة بالضحك، وخفَّت الغُصَّة قليلًا في حلقي.

الفصل الثاني

تحرير المرأة تحرير وطن

أيتها المرأة المصرية أفيقي

غابت أصوات النساء في مصر من الساحة السياسية، مقاعد المرأة في الجمعية التأسيسية للدستور يحتلها رجال يعتبرون وجه المرأة عورة، أو وجودها غير ضروري، أصوات المقتولين في الثورة غائبة، شربت الأرض دماءَهم، أصوات المفقودين أيضًا مفقودة، لم يعثر عليهم أحد، أصوات المحبوسين المُعذَّبين في السجون العسكرية غير مسموعة أيضًا.

أما الذين قتلوهم وحبسوهم فينالون جوائز الدولة والأوسمة وقلادات النيل، تاريخ العبودية المتناقض يُكرِّر نفسه.

يرتبط إجهاض الحركة النسائية المصرية بإجهاض الثورات الشعبية منذ القرون الماضية، حتى ثورة يناير ٢٠١١م.

استقلال وتحرير نصف الشعب (النساء) لا ينفصل عن استقلال وتحرير الشعب كله، لهذا لعب الاستعمار البريطاني القديم (ثم الاستعمار الأمريكي الحديث) دورًا رئيسيًّا مع الحكومات المستبدَّة المتتالية (الملكية والجمهورية) في إجهاض الثورات الوطنية والنسائية في آنٍ واحد، وهو ما يتم من خلال تقسيم الشعب طائفيًّا، باستخدام ورقة الدين مثلًا.

الدور الذي لعبه الاستعمار الخارجي مع حكومات السادات ومبارك، حتى الحكومة الحالية أصبح واضحًا في إشعال الفتن الطائفية وإجهاض الثورات الشعبية وثورات النساء.

الحكومة والإعلام يتعاونان علنًا وسرًّا مع السُّلطة الأمريكية في تمزيق أواصر الشعب، وإجهاض الثورة، وتشويه صورة الشباب الثائر والشابات الثائرات، فنجد الأمثلة من حولنا كثيرة، ومنها نذكر:

أن تحت اسم الحِفاظ على حقوق الأقباط والنساء والفقراء يتم ضرب حقوق الأقباط والنساء والفقراء.

والدور الذي تلعبه اليوم بوضوح الحكومات العربية والمصرية والسعودية والأمريكية لضرب الثورة الشعبية والنسائية في مصر وتونس والبلاد الأخرى من خلال القوى السلفية الغريبة عن الشعوب، الراقدة في حضن الحكومة الأمريكية والسعودية وغيرهما، والتي تعتبر من يجلس على عرش مصر إلهًا معصومًا، وتتهم الشباب الثائر بالعمالة للغرب وعداوة الإسلام.

هذه مجرد أمثلة عامة عن استخدام الدين في غير محلِّه، إجهاضًا للحركات الشعبية المُطالِبة بالحقوق والحريات.

خرجت المظاهرات الشعبية في تونس، نساءً ورجالًا ضد هذا النوع من الإرهاب السياسي تحت اسم وراية الإسلام، يطالبون بالنَّص في الدستور على المساواة التامَّة بين النساء والرجال.

رجل تونسي سلفي له لحية تتدلَّى حتى رُكبتيه، اتهم امرأة تونسية تطالب بالمساواة بين الجنسين بالكفر بالله، قالت له: «الله أمر بالعدل.» قال: «أمر الله بالعدل بين المواطنين الرجال، وليس بين الرجال والنساء.»

هذا المنطق — غير المنطقي — أصبح سائدًا في الإعلام العربي والأمريكي، تُشجِّعه الحكومات العربية والأمريكية تحت مسمَّى الحريات الدينية.

يمنع القانون التونسي تعدُّد الزوجات ويمنع الطلاق بإرادة الزوج المنفردة منذ عام ١٩٥٦م، هذه أُسس عادلة حمت الأسرة التونسية من بطش الرجال بزوجاتهم وأطفالهم تحت اسم الشرع، بينما تحاول القوى المعادية للثورة التونسية وتحرير المرأة تمرير بعض المواد في الدستور التونسي تسمح بالتفرقة بين الجنسين تحت مسمى «التكامل»، (وهو ما يعني أن المرأة تُكمل الرجل) خديعة كشفتها المرأة التونسية ومعها الثورة، فالتكامُل يعني «النقص»، لكن المساواة تعني أن المرأة مُستقلَّة، إنسانة كاملة بذاتها، كما الرجل إنسان كامل بذاته.

وقد تقدمت الثورة التونسية عن نظريتها المصرية في أمور متعددة، للذِّكر لا الحصر أقول: إن الجمعية التأسيسية للدستور في مصر أبعدت أهم قطاعات الشعب بما فيهم

النساء، بينما المفروض أن تمثل الجمعية التأسيسية للدستور جميع قطاعات الشعب بما فيهم النساء، ثم إسناد السلطة التشريعية لها لحين انتخاب مجلس الشعب، هذا حدث في تونس ولم يحدث في مصر.

علينا أن نُدرك أن وعي النساء يعني تحرير المجتمع ونجاح الثورة.

انطقوا الصدق، فالتاريخ لن يرحمكم

أورام سرطانية، تنمو في المخ، تأكل خلايا العقل، ذلك هو النفاق السياسي الديني المُتزايد، ولا علاج لهذا المرض إلا بشجاعة الصِّدق والمواجهة والتحدِّي، وليس بالمراوغة والتحايُل والتلوِّي، ليس بطأطأة الرأس أمام التناقضات والخرافات.

التصدِّي لهذه الرِّدة والثورة ضدها، ثم خلع رأس السُّلطة القديمة بالثورة، ويمكن خلع السُّلطة الجديدة إن راوغت وتخلَّت عن العدل والحرية والكرامة.

أعلن رئيس مصر الجديد أنه مع مبادئ الثورة، وأن مصر دولة مدنية، كررها كثيرًا، لماذا لا تصبح هذه المبادئ هي بنود المادة الثانية في دستور ما بعد الثورة؟

جميع الأحزاب الدينية في مصر تخالف القانون والدستور والدولة المدنية، القانون المصري يمنع تكوينها، لماذا لم تُحَل هذه الأحزاب؟ كيف تستمر وتُسيطر وتُروِّع المواطنين والمواطنات؟

ظاهرة المنتقبات والملتحين يتحرشون بالنساء والرجال، لا يترددون في سفك دم مَن يتصدى لهم.

ظاهرة العودة إلى الرِّق، وحق الرجال في نكاح الجواري وما مَلَكت أيمانهم، وليس فقط أربع زوجات.

محاولة الانقضاض على بنود قانون الأسرة التي تحمي حقوق الأطفال وأمهاتهم البائسات ... إلخ ... إلخ.

الخلاف يشتعل اليوم حول كلمة: «مبادئ» أو «أحكام» الشريعة الإسلامية، بينما لا يحتوي الدستور على تعريف واحد للمبادئ أو الأحكام أو حتى الشريعة نفسها، فكيف يكون الدستور غامضًا مراوغًا غارقًا في متاهات الخلافات بين ثلاث كلمات: «مبادئ»، «أحكام»، «شريعة»، ولها مئات التفسيرات المختلفة.

يدور الصراع الديني لأغراض سياسية اقتصادية، تدعمه الحكومات المحلية مع القوى الاستعمارية.

لعبت لجنة الحريات الدينية الأمريكية دورًا مستترًا في مصر وأفغانستان وإيران والسودان والصومال، لتمزيق الشعوب إلى فرق طائفية مُتناحرة.

الصراعات بين طوائف لم نعرفها في مصر منذ قرون، تم استيرادها مع الفول المدمس من كاليفورنيا والبيرة الإسرائيلي، والإسلام الخليجي، منذ الانفتاح الاقتصادي، والانغلاق الفكري.

مبادئ الأديان واحدة، العدل والحرية والكرامة والصدق، لماذا ينص الدستور على مبادئ دين واحد فقط؟

الدستور يقوم على مبادئ العدل والحرية والكرامة للجميع دون تفرقة على أساس الدين أو الجنس.

الشرائع الدينية أحكام بشرية تختلف من دولة إلى دولة، الشريعة في السعودية تختلف عنها في أفغانستان وباكستان وتونس والسودان ... إلخ.

هل نضع دستورًا غامضًا مُراوغًا يحتمل تفسيرات طائفية مختلفة، تتقاتل حولها الأحزاب وتؤدي إلى الفتن؟

جميع القوانين في مصر مدنية إلا قانون الأحوال الشخصية، لماذا؟ أليست الأسرة هي النواة الأساسية للدولة والمجتمع؟

هل يحكم الإنسان المصري قانون ديني داخل البيت، فإذا ما خرج من باب البيت يحكمه قانون مدني؟

المادة الثانية في الدستور تنطبق فقط على الزوجات، هدفها إخضاع الزوجة للسُّلطة المطلقة للزوج، وحرمانها من حقوقها الدستورية التي يتمتع بها زوجها، هذا التمييز ضد الزوجات يتناقض مع مبادئ العدل والحرية والكرامة.

كيف نقوم بثورة عارمة ضد الاستبداد في الدولة، ثم نوافق على الاستبداد في الأسرة؟

هذا التناقض تتجاهله القوى السياسية المدنية والدينية، يوافقون على بقاء المادة الثانية من الدستور، خوفًا من القوى الإسلامية، ولأنها لا تمس حقوقهم كرجال.

لم يرفض الأقباط المادة الثانية من الدستور، يقولون: «مبادئ الإسلام عادلة، وهي مبادئ المسيحية نفسها.»

حسنًا، لماذا النص على مبادئ الإسلام فقط؟

يطالب الأقباط بإضافة جملة: «على أنه لغير المسلمين الاحتكام لشرائعهم في قضايا الأحوال الشخصية.»

المسألة إذًا الإبقاء على سلطة الزوج؟

لذلك الرجال يقفون على قلب رجل واحد، رغم اختلاف الأديان والأحزاب والطوائف.

الدستور المأكول وقلادات النيل

المعركة حول الدستور بين النمور، والعقل المصري مبتور، لم يبقَ إلا القوة الغاشمة تطرد أطياف الشعب، لم يبقَ إلا قِلَّة مُتنمِّرة تتصارع على قطعة اللحم.

السياسة هي هذا الوحل، لهذا قررت العودة إلى روايتي المؤجَّلة عن ذكرياتي منذ ستين عامًا، لا شيء يبقى في الذاكرة مثل الحب ما بين العاشرة والعشرين من العمر.

المرأة التونسية لا يخدعها الكلام الزئبقي عن عدم المساس بحقوقها في الدستور الجديد، تنبَّهت لكلمة «تكامُل» المُراوِغة، تنبأت المرأة التونسية بالمستقبل المُظلِم، خرجت في مظاهرات وقائية استباقية تُعلن: «لا تكامُل، بل المساواة التامَّة»، وعي المرأة التونسية يسبق وعي المرأة المصرية بنصف قرن، المرأة المصرية ملفوفة الرأس، عفيفة النفس، لا تتنبَّأ بالغيب، أصبح الله والغيب من أملاك أصحاب الحُكم.

يتم الآن وضع دستور مصري في غياب أطياف الشعب منهم النساء، لم تخرج المرأة المصرية في مظاهرة ولم يرتفع لها صوت، ولم يرتفع صوت الرجال الذين يؤلفون الكتب عن تحرير المرأة، ويحضرون المؤتمرات النسائية الدولية.

الرجال منهمكون في تقسيم غنائم الثورة، ووضع الدستور في غياب الحرائر والقوارير.

لم يُضَف إلى الدستور حتى الآن مادة واحدة تنص بوضوح على المساواة التامة بين الرجال والنساء في جميع الحقوق والواجبات العامة والخاصة، هذا هو الأساس الدستوري الأول لأي عدل وحرية وكرامة.

في تونس خرجت مظاهرات الرجال والنساء، هذا الوعي الشعبي في تونس يقف ضد أي تهديد لحقوق النساء، هذا الوعي لا ينتظر حدوث الرِّدة، بل يؤمن أن درهم وقاية خير من قنطار علاج.

الدستور المصري ينص على المساواة بين المواطنين في الدولة، هذا النص شديد العمومية، ويسمح بالتلاعُب، لذلك يجب النص في الدستور الجديد على المساواة بين المواطنين والمواطنات، وعلى المساواة التامة بين النساء والرجال في الدولة والأسرة، دون استثناءات تحت أي شريعة.

الدستور في الدول المدنية يعلو جميع الشرائع والمذاهب الدينية، وإلا فإن الكلام عن دولة مدنية مصرية ليس إلا مراوغة ودفنًا للرءوس في الرمال.

نجحت المرأة التونسية منذ عام ١٩٥٦م في اكتساب حقوق، منها تساوي الزوج والزوجة في حق الطلاق أمام القاضي، وتجريم تعدُّد الزوجات، هكذا تمت حماية المرأة والأسرة التونسية من آفات تنخر في عضد الأسرة المصرية حتى اليوم.

فشلت المرأة المصرية فيما نجحت فيه المرأة التونسية منذ عام ١٩٥٦م.

خرجت آلاف النساء والرجال في مظاهرات ضد حركة النهضة الإسلامية الحاكمة في تونس، التي تسعى إلى تمرير فصل من دستور تونس الجديد، يعتبر المرأة «مُكمِّلَة» للرجل، لغة الدستور يجب أن تكون واضحة دقيقة لا تحتمل التأويل.

طالبت المظاهرات بالوضوح في الدستور، وشطب كلمة «مُكمِّل»، والنص على المساواة التامة بين الجنسين، المساواة بين الرجل والمرأة تعني أن كلًّا منهما مكتمل في ذاته، أو مكتملة في ذاتها.

رغم مشاركة المرأة المصرية في الثورة بدمها وحياتها إلا أنها لم ينلها إلا الأذى، مثل الشباب الفقراء، قُتِلوا ودُفِنوا، أو فقدوا نور عيونهم، أو لا يزالون مفقودين لم يُعثَر على جُثثهم، أو قابعين في السجون العسكرية تحت التعذيب.

نتحدث هنا عن الآلاف من شباب مصر، دفعوا ثمن الثورة بدمائهم، ويعيش الذين قتلوهم في راحة ونعيم، أو في سجن خمس نجوم، أو تُكرِّمهم الدولة بقلادات النيل!

العضلات السياسية في مصر
وانسحاب المرأة

نجحت الثورة التونسية في التخطيط لوضع دستور جديد يقرر المساواة الكاملة بين النساء والرجال، تحقيقًا لمبادئ الثورة: العدالة والحرية والكرامة.

شعرت بالسعادة وأنا أسمع هذا الخبر خلال مؤتمر عالمي في بلجيكا، في الرابع والعشرين من سبتمبر (أيلول) عام ٢٠١١م، تحدَّثت فيه وفود من تونس وفلسطين ومصر وبلجيكا وبلاد أخرى.

حضر المؤتمر حوالي ألف امرأة ورجل، لم أشعر بالغُربة وأنا جالسة في مجتمع تتساوى فيه النساء مع الرجال، تعلو أصوات النساء بمثل ما تعلو أصوات الرجال، تتساوى فيه فلسطين مع كل البلاد، ويعلو صوت فلسطين مثل كل أصوات الدول، بالطبع لا يمثل هذا المؤتمر الحكومة البلجيكية، فهي مثل غيرها من الحكومات غربًا وشرقًا تُتقن الألعاب السياسية والانتخابية المفروضة في عالم تحكمه القوة وليس العدل أو الحرية أو الكرامة.

لقد نظَّم هذا المؤتمر حزب العُمَّال في بلجيكا، وسألت مرافقي الشاب البلجيكي «بيرت»: «هل حزب العُمَّال يعني الحزب الشيوعي؟»

قال: «لا، لقد اخترنا أن نُسمِّي حزبنا حزب العُمَّال لندافع عن حقوق العاملين جميعًا وحقوق النساء، وقد نقدنا الأحزاب الشيوعية في بلجيكا وأوروبا؛ لأنها تخلَّت عن قضايا العُمَّال والنساء، ولم تعُد تختلف كثيرًا عن الأحزاب اليمينية، لقد ذاب اليسار الأوروبي في اليمين، بل ذاب أيضًا في الأحزاب المسيحية المُحافظة، بل أيضًا بدأ ينافق التيارات الإسلامية المتصاعدة في أوروبا.»

واستطرد قائلًا: «المشكلة الطبقية تُشبه المشكلة الأبوية، وهي مشكلة طغيان القوة على السياسة، القوة العسكرية الاقتصادية مع القوة العضلية الذكورية كلاهما تؤيده العقائد السياسية والدينية، لهذا تم تجاهُل قضايا النساء والعُمَّال تحت حُكم اليمين أو اليسار.»

قلت لبيرت: «وأنت من اليسار أم ماذا؟»

قال: «لم نعُد نهتم كثيرًا بالعنوان أو اسم الهوية، نحن نهتم بالعمل وسط العُمَّال والنساء.»

فعلًا لَحِظت أن القاعة ممتلئة بالنساء والعُمَّال والشباب من مختلف الفئات.

سألني بعض الشباب والشابات من تونس عن المرأة المصرية بعد الثورة فقُلت: «نحن نصارع قوة الثورة المضادة التي تضرب حقوق النساء والفقراء معًا، كنا في ميدان التحرير قوة موحَّدَة النساء والرجال ومن كل الفئات دون تفرقة، وكان لا بد أن نستمر في ميدان التحرير حتى نُكوِّن المجلس الشعبي الثوري كما حدث عندكم في تونس.»

قالت شابة تونسية: «نعم، لقد كوَّنَّا المجلس الشعبي الثوري في تونس الذي يُراقب ويُوجِّه الحكومة الانتقالية، الجيش في تونس يتولَّى حماية البلد من أعداء الخارج، ليس للجيش سُلطة في إدارة البلاد كما الحال في مصر، مطالب ثورتنا تنفِّذها الحكومة الانتقالية تحت إشراف الثورة من خلال مجلسنا الشعبي الثوري، لهذا لم يحدث الانفصال بين التغيير السياسي والتغيير الاجتماعي، ونالت حقوق النساء والعمال والفقراء الاهتمام، وتم تغيير الدستور لتحظى المرأة التونسية بنصف المقاعد البرلمانية؛ لأنها نصف المجتمع.»

توقَّفت عن الحديث، وأصابتني غُصَّة، تذكَّرت الغُربة التي أشعر بها في أي اجتماع سياسي في مصر، بعد الثورة مثل قبل الثورة، فقط خلال أيام الثورة في ميدان التحرير زالت غُربتي، كنت أجلس تحت الخيام مع نساء ورجال لا أعرفهم، مسلمين ومسيحيين، شباب وشابات لم أقابلهم من قبل، لكن عِشت معهم في سعادة وأمل كأنهم من أفراد عائلتي، بل إن عائلتي الصغيرة البيولوجية بدت أقل حميميةً من هذه العائلة الإنسانية الكبرى.

لو أننا كوَّنَّا مجلسنا الشعبي الثوري في ميدان التحرير قبل أن نتفرق لما حدثت الرِّدَّة في حقوق النساء والشباب والعُمَّال والفقراء، ولما قبض على الحكم القوى غير الثورية القديمة، المتشبِّثة بكراسيها في كل أجهزة الدولة، أو القوى السياسية الانتهازية التي تتسابق للقفز على الحُكم في أي لحظة.

قبل سفري بأيام شاهدت أحد الاجتماعات السياسية الكبيرة في القاهرة، التي تظهر فيها العضلات الذكورية والسباق المحموم للفوز في حلبة الانتخابات، والتنافس على اقتسام كعكة السلطة والمال والإعلام، شعرت بالغربة في بحر من الذكور من ذوي الأصوات الخشنة الزاعقة والقبضات القوية تضرب الهواء، وكل من يختلف معهم، لم يكن هناك إلا قِلَّة قليلة من النساء أغلبهن محجبات صامتات، وإن تكلَّمت إحداهن فهي تقلِّد الرجال في الصراخ والضرب بقبضة اليد، أو تتكلم بصوت خجول ناعم بأمل التأثير الأنثوي على الذكور، كان الموضوع يخص الوطن كله، وليس نصفه فقط من الرجال، لكن الاجتماع انتهى إلى قرارات سياسية تتعلق بالانتخابات والأحزاب، ولا شيء عن القضايا الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والتعليمية والصحية المُلِحَّة في حياة الأغلبية الساحقة من الشعب المصري نساءً ورجالًا، بل كان هناك اتجاه طبقي أبوي يلفظ مطالب العُمَّال والفقراء بطرف لسانه قائلًا عنها: «مطالب فئوية ليست ذات أهمية.» أما حقوق النساء والأمهات والأطفال المشردين، فقد اتفق الجميع على أنها من صنع الغرب أو صنع سوزان وجيهان وليلى وموزة ولوزة وغيرهن من زوجات الحكام ذوات القبضة الحديدية، بنات حواء الآثمة التي أخرجت آدم والبشرية كلها من جنة الرضوان.

أصبحت حقوق النساء تتراجع بعد الثورة، والنساء ينسحبن من المعركة الضارية، حيث تُنتهَك السُّمعة والجسد كما يُنتهَك كلُّ شيء تحت اسم حرية الانتخابات.

شيء ينتهك سُمعة الثورة المصرية التاريخية رغم أهدافها الإنسانية العُليا ووسائلها السِّلمية المُتحضِّرة، وعلينا أن نُنقذ ثورتنا من براثن أعدائها، أن نُعيد الوحدة إلى صفوفنا نساءً ورجالًا، أن نربط القضايا السياسية بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والصحية.

لقد تخلَّت كل الأحزاب والعضلات السياسية في الحلبة عن كل هذه القضايا التي قامت من أجلها الثورة، وعادت إلى اللعبة القديمة منذ العهود الغابرة، وعلى المرأة أن تتحلَّى بالوعي والشجاعة وليس بالكعب العالي والماكياج وصبغات الشعر، أن تتوحَّد صفوفها داخل الاتحاد النسائي ليُصبح لها قوة سياسية وصوت مسموع محترم، أن تربط قضية المرأة بقضية الوطن، أن تدرك أن هناك بعض الرجال أكثر وعيًا وحماسًا لقضية المرأة من نساء يضربن حقوق المرأة بالانضمام إلى فلول أو فلولات سوزان مبارك، باعتبارها رائدة تحرير المرأة المصرية، والحقيقة أنها لعبت دورًا كبيرًا في مصادرة الاتحاد النسائي الشعبي، وتفتيت الحركة النسائية في مصر، وإحاطة نفسها بالمنافقين والمنافقات

في المجلس القومي للمرأة. لقد حوَّلت زوجات الملوك والحكَّام في مصر والعالم العربي الحركات النسائية الشعبية إلى حركة قِلَّة نُخبوية عليا من كبار الموظفين والموظفات في الحكومات.

من السهل الحديث عن الثورة وحقوق الفقراء والنساء، كل الأحزاب والعضلات السياسية تضع هذه الحقوق في المزاد في الموسم الانتخابي لتحصل على أصوات النساء والفقراء، وما إن ينتهي المولد، حتى يعود كل شيء كما كان، ألا يتعلم الفقراء والنساء الدرس؟!

النساء والشعب بين المُطلَق والنِّسبي

تسعى التيارات الدينية «الأصولية» لوضع دستور مصري قائم على شرع الله، والسيادة لله (حسب مفهومهم لمعنى الله والشرع)، وتسعى التيارات المدنية والعلمانية لوضع دستور يقوم على سيادة الشعب والقانون والعدالة (حسب مفهومهم للشعب والقانون والعدالة).

الحوار يدور، لكنه ليس حوارًا فكريًّا متجرِّدًا عن المصالح الاقتصادية والسياسية، يدور بين الرجال والرجال، لا تشارك فيه النساء (نصف المجتمع)، إلا قِلَّة قليلة تُعد على أصابع اليد الواحدة، تحرص كل منهن على التبعية لفكر حزبها، أو التيار الذي تنتمي إليه، سواء كان دينيًّا أو علمانيًّا.

امرأة تنتمي إلى اليسار القبطي العلماني تؤيد بقاء المادة الثانية في الدستور التي تنص على: «مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع»، هذه الأستاذة تُدرك أن هذه المادة تتناقض جذريًّا مع الدولة المدنية، وتمهد الطريق لدولة دينية إسلامية أصولية، لكنها تسعى فقط لإضافة عبارة: «يتبع غير المسلمين شرائعهم في أحوالهم الشخصية»، تردِّد ما يقوله زملاؤها في الحزب، دون أن تُدرك الضرر الذي سيقع على مصر كلها، وعليها كامرأة، فمكانتها في شريعتها ليست أفضل من غيرها من الشرائع.

واحدة أخرى من التيار الإسلامي الأصولي تُصر على هذا النص «في إطار الشريعة الإسلامية» فيما يتعلق بقانون الأحوال الشخصية، وتُريد إضافة نص جديد «طاعة المرأة لزوجها وحجابها وتعدد الزوجات من أوامر الله». لا تُدرك هذه الأستاذة أنها أول من تدفع من حياتها ثمن هذه النصوص.

الحوار حول المادة الثانية من الدستور كشف عن غياب الوعي، أو الأصح غياب الشجاعة الفكرية في مواجهة التديُّن المتصاعد، لتكريس الخضوع للاستبداد السياسي والاقتصادي والثقافي تحت اسم الديمقراطية.

كلمة الديمقراطية أصبحت كاللبان الأمريكي، يلوكها كل لسان، الكل يتغنى بالديمقراطية كتابةً وشفاهةً من أقصى اليمين الرأسمالي الديني إلى أقصى اليسار الاشتراكي العلماني، فقدت الكلمة معناها.

كلمة العلمانية شاعت مع الزحف الديني الأصولي، في مصر والعالم شرقًا وغربًا، يحتاج الحكَّام إلى شعوب جاهلة مطيعة يسهل حكمها واستغلالها. لا يختلف النظام في مصر عن النظام في أمريكا أو أوروبا، الاختلاف فقط في الشكل المُتقَن التكنولوجي، والتقدُّم العلمي في تجميع المعلومات وتطوير أسلحة الدمار الشامل.

خضع العالم سبعة آلاف عام لفكرة العُدوان على حقوق الغير بالقوة، أصبحت الحرب هي القانون الطبيعي، أو القانون الإلهي المُطلَق، القوة المُطلَقة التي خلقت الغني والفقير والرجل والمرأة والسيد والعبد والحاكم والمحكوم.

حتى اليوم يقوم التعليم على المُطلق في المدارس الأمريكية والأوروبية حسب الفكر المسيحي، رغم انهزام الكنيسة أمام العلم الحديث. تطور علم الكون وعلم البيولوجيا، وفسيولوجيا المخ، أصبح كل شيء نسبيًّا يخضع للعقل والعلم، لا أحد يؤمن هناك أن المرأة أقل بيولوجيًّا أو عقليًّا من الرجل، رغم أن أغلب النساء هناك يعانين التفرقة في قوانين الزواج والنَّسَب والإرث، وتحصل المرأة على نصف أجر الرجل في مجالات كثيرة، وتصل المرأة هناك إلى منصب وزيرة الخارجية أو رئيسة الدولة، لكنها تظل خاضعة لمفهوم الزواج والأمومة حسب مفهوم الكنيسة القديم. لا أحد هناك يؤمن أن الكون جاء في ستة أيام، حسب نظرية الخلق في الكتاب المُقدَّس، لكنهم يذهبون إلى الكنيسة كل أحد، يدفعون النذور على شكل التبرُّعات، يحتفلون بميلاد المسيح وأمه العذراء، وإن توقفوا عن الإيمان بالعُذرية.

تغلَّب التيار الديني الأصولي في مصر على التيار العلماني، يتم تغيير بعض مواد الدستور، خاصةً فيما يتعلَّق بحقوق الشعب الفقير والنساء، يعني حقوق الأغلبية خارج الأحزاب والقوى السياسية.

الشعب المصري، في نظر التيار الديني، ليس مصدر السُّلطات، بل الله هو صاحب السيادة، كيف يسمحون للشعب أن يحكمهم؟ الشعب الذي خلع مبارك بقوته الثورية، وما زال ينادي بإسقاط بقية النظام.

يجب عليهم إزاحة الشعب؛ ليصبح الحكم لهم تحت اسم الله، من يعترض على الله إلا الكفرة؟ كلمة الشعب لا تقل غموضًا عن كلمة الله، في نظر التيار العلماني.

لا يؤمن بالشعب المصري المقدَّس (في نظرهم) إلا الخونة للوطن وأعداء العدالة الاجتماعية.

يعيش أغلبهم في الأحياء الراقية النظيفة، يُنفقون الأموال على تعليم أولادهم في أمريكا وأوروبا، أدواتهم أجنبية، بما فيها الكمبيوتر واللاب توب، يقابلون هيلاري كلينتون، وأعضاء لجنة الحريات الدينية الأمريكية، يؤلفون الكتب عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة، يشطبون أسماء النساء المفكِّرات المصريات من التاريخ الحديث والقديم.

تيار الإسلام السياسي في مصر لا يقل تناقُضًا، إلى جانب تعاونه مع الاستعمار القديم والجديد، مع ذلك يتهمون أي شخص بالعمالة للغرب أو بالكفر، إن أراد فصل الدين عن الدولة، أو سألهم هذا السؤال البَدهي: «مَن يتجسَّد في صورة الله حين نُريد تطبيق نص «السيادة لله»؟ أنتم أو الإخوان أو السلفيون أو الصوفيون أو القرآنيون أو السُّنَّة أو الشيعة؟»

التيار العلماني في مصر، الليبرالي أو الاشتراكي، وغيرهما، لماذا فشلوا جميعًا في تأسيس تيار فكري يقف في وجه هذه التيارات الدينية الصاعدة؟

هناك أسباب من خارجهم ومن داخلهم، منها أن الحكومات المصرية المتعاقبة عبر القرون، عملت على ترسيخ الفكر الديني الأصولي في نفوس الأطفال. في المدارس المصرية، يقوم التعليم في مصر حتى اليوم على السمع والطاعة، طاعة الله وأولي الأمر منهم، المندوب السامي وجلالة الملك أيام الإنجليز، مبعوثة أوباما والسيد الرئيس أيام الأمريكيين، بالإضافة إلى الزوج صاحب القوامة في حالة الجنس الآخر من غير الرجال.

المفكرون العلمانيون يذكرون علي عبد الرازق وطه حسين ونجيب محفوظ وفرج فودة ونصر حامد أبو زيد، وغيرهم. لا يذكرون بالطبع اسم امرأة مصرية، قد يقتبسون عبارة من امرأة أمريكية أو أوروبية باعتبارها مُفكِّرة، لكن المرأة المصرية في نظرهم لا تكون مفكرة، إنها ناقصة عقل عن الأجنبية.

يقابل الزعيم السلفي هيلاري كلينتون، يستمع إليها بأدب واحترام، في حين تعيش زوجته حبيسة البيت والحجاب.

لماذا لم ينجح روَّاد التيار العلماني في الوصول إلى الشعب المصري؟ كانوا أفرادًا متفرقين، كلٌّ منهم يكتب كلمته، ويمضي إلى حضن السلطة أو خارج البلاد، لماذا لم يؤسسوا تيارًا فكريًّا متقدمًا؟ لماذا تظل الساحة الفكرية المصرية حتى اليوم خالية من الشجاعة العقلية؟

لا أحد ينقد الفكر الديني السياسي بشجاعة، كم منهم طالب علنًا بحذف المادة الثانية من الدستور؟ كم منهم صُوِّر في الصحف بجانب الرئيس الجديد كما صُوِّروا مع القديم؟ لُغتهم لم تتغير، كلٌّ منهم يتهم الآخر بالتحوُّل، كلٌّ منهم يدافع عن نفسه، يكاد المريب يقول خذوني.

أغلب النُّخب الفكرية لا تأمن إلا في حضن السُّلطة، الشعب المصري أيضًا لا يطمئن إلا في حضن السلطة، يؤمن الجميع بالمثل الشائع: «إن فاتك الميري اتمرَّغ في تُرابه».

هل تغيرت النُّخبة المصرية بعد الثورة؟

ربما تغير بعض الوجوه، لكن الفكر والأسلوب لم يتغيرا، ألا يتخبط الجميع بين المُطلق والنِّسبي؟ بين الديني والعلماني؟ ألا ينسون في الصراع على مصالحهم الطبقية الأبوية نصف المجتمع من النساء؟ ألا يعتبرون مظاهرات الفقراء فوضى وبلطجة، أو على الأقل احتجاجات فئوية غير وطنية؟ ألا تظل صاحبات وأصحاب الشجاعة الفكرية في قبورهم (إن كانوا موتى) أو في بيوتهم، ليس لهم مكان في الساحة الفكرية والثقافية، التي تتصارع فيها القوى الحزبية العلمانية والدينية على حد سواء؟

كرامة المرأة كرامة وطن

جاءتني فتاة حائرة، تقدم للزواج منها شاب من التيار السلفي يعتبر اسمها ووجهها عورة، لكنه يُدافع عن كرامة مصر، ويرفض المعونة الأجنبية، سألتني: هل تتزوجه لأنه يحترم كرامة الوطن أم ترفضه لأنه يُهدر كرامتها؟

لا يواجه الرجل مثل هذه الحيرة؛ لأن كرامة الوطن لا تتناقض مع كرامة الرجل في الفكر الديني السائد، ولأن اسم الرجل لا يكون عورة أو وجهه، فهذه إهانة له، فلماذا لا تكون إهانة للمرأة أيضًا، وهي إنسانة مثله لها كافة الحقوق الإنسانية؟ أين المساواة والعدالة والكرامة التي نادت بها الثورة المصرية؟

المفترض أن الكرامة لا تختلف من إنسان إلى إنسان آخر، الكرامة هي حق لجميع المواطنين بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو العرق أو الطبقة أو غيرها.

قلت لهذه الفتاة: «لو كنت مكانك، فلن أتزوج رجلًا يعتبر اسمي ووجهي عورة، وإن كان بطلًا وطنيًّا، إن كرامة المرأة لا تنفصل عن كرامة الوطن.»

تحيرت الفتاة، وقالت: «أريد أن أتزوج.»

قلت: «اختاري رجلًا يحترم كرامتك.»

قالت: «لم أجده.»

قلت: «لا تتزوجي لمجرد الزواج.»

قالت: «أخاف من كلمة عانس.»

قلت: «يمكنك حذفها من قاموسك.»

لماذا انخفضت كرامة المرأة المصرية مع تصاعُد التيارات السياسية الدينية؟

لماذا يمدحون رجلًا يتشدق بكرامة الوطن رغم أنه يدوس على كرامة النساء؟

ينسى الرجال كرامة النساء وحقوقهن في حلبة التنافسات على كراسي الرئاسة والمُزايدات السياسية والانتخابية.

من هي اللجنة التي ستضع الدستور الجديد أو العقد الاجتماعي الجديد؟

هل تمثل لجنة الدستور الشعب المصري بكل فئاته؟ والنساء نصف الشعب فهل يكون نصف أعضاء اللجنة من النساء؟

هل يمكن لمجلس ٩٩٪ من أعضائه رجال أن يمثل الشعب؟

إذا جاء أغلب أعضاء لجنة الدستور من التيارات التي لا تساوي بين كرامة المرأة وكرامة الرجل، فسوف يكون هذا الدستور غير عادل، وبالتالي غير دستوري؛ لأن الدستور إن لم يقم على العدالة والمساواة بين المواطنين جميعًا بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو الطبقة أو غيرها، فإنه يكون دستورًا أعرج، لا يستحق اسم دستور، ولا يستحق اسم عقد اجتماعي.

بعض النساء يقولون العدالة شيء، والتوافُق بين القوى السياسية والدينية السائدة شيء آخر، لذلك تضيع حقوق النساء تحت اسم التوافُق، تحت اسم التوافُق تتسرب الديكتاتورية والعنصرية والطبقية الأبوية إلى الدستور.

يقولون: «النساء أغلبية عددية، لكنهن أقلية من حيث القوة السياسية، والقوة هي التي تحكم وليس العدل.» إذًا لن تمثل لجنة الدستور الشعب المصري كله، ولن تنتج عقدًا اجتماعيًّا جديدًا أو دستورًا عادلًا، يساوي بين النساء والرجال.

هل غيرت الثورة المصرية الثقافة القائمة على إهدار كرامة المرأة؟

في مقاله بجريدة الأهرام ١٣ فبراير ٢٠١٢م كتب د. محمد بديع، المرشد العام للإخوان المسلمين: «إننا نسعى لبناء الدولة الديمقراطية الحديثة القائمة على أسس المواطنة ومبادئها وسيادة القانون والحرية والمساواة بين جميع أبناء الأمة بلا تمييز على أساس العرق أو اللون أو الدين.»

لم يذكر مرشد الإخوان التمييز على أساس الجنس، لماذا؟ هل سقطت سهوًا؟ أم أنه يعتبر كلمة العرق تعني الجنس؟ أم أن مبدأ المساواة بين الرجال والنساء غائب في فكر الإخوان المسلمين؟

وفي جريدة الأهرام ١٢ فبراير ٢٠١٢م يكتب د. علي جمعة مفتي الجمهورية: «إن الإسلام قرر المساواة بين الناس جميعًا، أما الآية القرآنية التي تقول: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣٤)، فهي لا تتحدث عن جنس النساء وجنس الرجال، بل تتحدث عن الزوج وزوجته، حيث جاء فيها: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ولا يصح لأي رجل أن يفعل ذلك إلا بزوجته.»

هذا كلام المفتي، ومعناه أن المساواة في الإسلام تكون بين الناس جميعًا نساءً ورجالًا، إلا في حالة الزوجة وزوجها، وهذه تفرقة كبيرة تُهدر فيها كرامة المرأة لمجرد أنها تزوجت.

وضع الزوجة المصرية في الواقع أدنى من وضع الماشية، ترتفع قيمة البقرة في الريف عن قيمة الزوجة، وثمن الخادمة قد يرتفع عن قيمة الزوجة، وقد يمتلك الرجل بقرة واحدة وأربع زوجات يشتغلن أكثر من البقرات.

يتسرب هذا المعنى إلى الثقافة العامة والتعليم في المدارس والتربية في البيوت، تصبح كرامة الزوجة مُهدرة، أو النساء بصفة عامة.

كثير من الصحفيين والكُتَّاب يتهكَّمون على المرأة، كنوع من التسلية، كان توفيق الحكيم يفخر بأنه عدو المرأة، أنيس منصر لم يكف عن إهدار كرامة النساء في عموده اليومي بجريدة الأهرام.

في جريدة الأهرام ١٨ فبراير ٢٠١٢م في دنيا الكاريكاتير، تحت عنوان «إقبال ضعيف جدًّا ف انتخابات الشورى» يصور الكاريكاتير زوجة مرعبة الشكل، ضخمة الجسد كالفيل، شعرها أسود غزير منكوش، تمسك في يدها اليمنى أداة حديدية، وتمسك في اليد الأخرى زوجها الضئيل الجسد، أمامه حلل يغسلها وزوجته تكاد تسحله، وتقول له: «شورى إيه؟ الشورى هنا شورتي وبس.»

هذه الصورة تكذب على الناس؛ لأن الزوج في الواقع والقانون والشرع والعرف، هو الذي يحكم العائلة كلها بما فيها زوجته، ويضربها إن لزم الأمر، ويطلقها بإرادته المنفردة حين يشاء، ويتزوج امرأة ثانية وثالثة ورابعة إن أراد، فلماذا يصورون المرأة كأنما هي الطاغية في حين أن الرجل هو الطاغي؟

الثقافة السائدة قائمة على الأكاذيب وقلب الحقائق، وإهدار كرامة النساء، يكفي أن نمشي في الشارع، لنسمع من الصبيان سيل الشتائم تنهمر على رءوس الأمهات، وانتهاك حرمة أعضائهن الحميمة، ولنسمع الباعة الجائلين يقسمون كل لحظة بالطلاق بالثلاثة.

لكن الثورة قامت ورفعت شعارات: الكرامة والعدالة والحرية، والمفروض أن تسري هذه المبادئ على النساء نصف المجتمع، وأن تصبح هذه المبادئ هي أساس الدستور الجديد وكل القوانين الجديدة العامة والخاصة، بما فيها قانون الأحوال الشخصية، هذه هي الوسيلة الوحيدة لخلق مجتمع أفضل، وأسرة أقل تعاسة، وامرأة كرامتها لا تنفصل عن كرامة الوطن.

تحرير المرأة تحرير وطن

اجتمعت الحركة النسائية المصرية بمنظماتها المتعددة أخيرًا، مع ممثلي الأحزاب وائتلافات الشابات والشباب الثورية، والشخصيات العامة، نساءً ورجالًا، مِمَّن يُدركون أن لا تحرر للوطن دون تحرر النساء، ولا تحرر للنساء دون تحرر الوطن.

لعبت النُّظُم الاستبدادية في مصر دورًا كبيرًا في تمزيق الحركة النسائية المصرية، وغيرها من الحركات الوطنية، حسب مبدأ «فرِّق تسد»، كما لعبت الحكومات بعد الثورة دورًا في تشتيت القوى الثورية، وإضعاف تأثيرها، وحبس الشباب والشابات في السجون العسكرية حتى اليوم.

ولم يكن لثورة يناير ٢٠١١م أن تنجح في إسقاط مبارك وكبار معاونيه إلا بالاتحاد والوحدة بين جميع فئات الشعب المصري، لهذا أصبح الاتحاد بين كل الحركات الوطنية المصرية ضرورة مُلِحَّة؛ لاستعادة قوة الثورة ورُوحها ونشاطها وتحقيق أهدافها، النساء نصف المجتمع في مصر، وكل شعوب العالم يُقدِّمن أرواحهن ودماءهن في الثورات الشعبية، من أجل الحرية والعدالة والكرامة، وضد القهر، وجميع أشكال الظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والقانوني والعائلي والجنسي والثقافي والأخلاقي، وغيرها.

منذ نشوء النظام العبودي (الطبقي الأبوي) في التاريخ البشري لم تكُف النساء عن الثورة ضد هذا النظام مع زملائهن الرجال من العبيد والأجراء والمهمشين والمهمشات، والثورات المصرية الشعبية خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وحتى ثورة يناير، شاركت فيها النساء المصريات مع الرجال في كل المجالات، كما شاركت النساء في الثورات العربية، من تونس إلى اليمن وبلاد العالم في الشمال والجنوب، من حركة «احتلوا وول ستريت» في الولايات المتحدة الأمريكية إلى حركة «احتلوا سان بول» في بريطانيا، وغيرها

من الثورات الشعبية المشتعلة خلال هذا القرن الحادي والعشرين، ضد النظام العالمي والمحلي الاستبدادي العسكري الاستعماري العنصري الطبقي الأبوي.

نحن نعيش في عالم واحد محكوم بنظام واحد، قائم على العنف والإرهاب والاستغلال والظُّلم، خاصةً للنساء والفقراء والمهاجرين، لهذا أصبح النضال ضد هذا النظام عالميًّا ومحليًّا، تتضامن فيه شعوب العالم نساءً ورجالًا، من أجل العدالة والمساواة الكاملة بين البشر بصرف النظر عن الجنس أو الطبقة أو الجنسية أو العِرق أو الدين أو العقيدة أو غيرها.

حكومة فرنسا مثلًا (في عهد فرانسوا أولاند) تضم سبع عشرة وزيرة امرأة، وسبعة عشر وزيرًا من الرجال بالتساوي، إحدى الوزيرات عربية مغربية الأصل هي نجاة بلقاسم عمرها ٣٤ عامًا فقط، تم اختيارها لمنصب المتحدثة الرسمية للحكومة الفرنسية.

أصبحت النساء في عدد من البلاد (إسبانيا والسويد والنرويج وغيرها) تمثل ٥٠٪ من السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وغيرها من الهيئات الرسمية والشعبية، مصر مهد الحضارة الإنسانية ليست أقل من هذه البلاد.

قضية تحرير المرأة لم تبدأ في عصرنا الحديث، وليست مستوردة من الغرب، بل هي ممتدة في تاريخ مصر القديم، حيث شاركت ثورات النساء مع ثورات العبيد في خلع النظم الاستبدادية الطبقية الأبوية.

وقضية تحرير النساء، هي قضية سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية كبرى مثل قضية الديمقراطية والتحرير الوطني الكامل من الاستعمار الخارجي والاستبداد الداخلي. ولا ديمقراطية دون النساء، ولا عدالة اجتماعية دون النساء.

تتجاوز قضية المرأة الفروق المفروضة على البشر بسبب الجنس أو الطبقة أو الدين أو العِرق أو العنصر أو النوع أو العمر أو المهنة أو غيرها، الجميع من فئات الشعب المصري يناضلون (بصرف النظر عن الاختلافات) من أجل تحقيق مبادئ ثورتنا منذ يناير ٢٠١١م الحرية والعدالة والكرامة وغيرها من المبادئ الإنسانية، على رأسها الصدق في القول والعمل، لا فاصل بين الحياة العامة والخاصة.

وقد أصبح من الضروري توحيد الحركة النسائية المصرية داخل قوة سياسية واجتماعية خلَّاقة مُبدعة ومُؤثرة، وإدخال مادة في الدستور المصري الجديد تنص على المساواة الكاملة بين النساء والرجال في جميع الحقوق والواجبات العامة والخاصة، وأن يكون للنساء نسبة ٥٠٪ في جميع المجالس والهيئات التنفيذية والنيابية والقضائية والتشريعية والحزبية والعلمية والفنية وغيرها.

المفاهيم لدى الرأي العام عن قضية تحرير المرأة وربطها بقضية تحرير الوطن داخليًّا وخارجيًّا، إنها قضية محلية وعالمية، نشأت في كل بلاد العالم ضد القهر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والجنسي والثقافي وغيرها. وحرية المرأة هي حرية الرجل، لا فرق، كلٌّ منهما إنسان حرٌّ مستقل، لكلٍّ منهما جميع حقوق الإنسان القائم بذاته، وليس فردًا ناقصًا يُكمله الآخر. وتُناضل الحركة النسائية المصرية مع الحركات الوطنية الأخرى بجميع الطرق المتاحة، ومنها المظاهرات النسائية والشعبية السلمية، والوقفات الاحتجاجية، وعقد الندوات والمؤتمرات المحلية والعربية والأفريقية والدولية، ونشر الثقافة التحريرية في كل المجالات الإبداعية العلمية والأدبية والفنية، وغيرها.

سوف تتصدى الحركة للرد على الفتاوى والدعوات الجديدة التي تحاول العودة بالمرأة المصرية إلى الوراء، ومنها الدعوة لعودة المرأة للبيت، رغم أن ثلثي الأسر المصرية تعولها النساء، والدعوة إلى إلغاء القانون الذي يمنع ختان الإناث تحت اسم الإسلام، رغم أن عادة الختان تعود إلى عصور العبودية قبل ظهور الأديان، قرأنا أخيرًا على لسان سيدة ذات منصب عالٍ جديد تقول إن المرأة غير المختونة ناقصة الإيمان.

وأنا أعتقد أن فرض هذه الجريمة العبودية على النساء باسم الإسلام ليس إلا إهانة للإسلام والنساء معًا.

الختان والإيمان

يتصيد الإعلام الأمريكي الأخبار التي تشوِّه الإسلام، لكن مِن أين تأتيهم هذه الأخبار؟

أتابع الصحافة العربية والمصرية من بعيد، هي التي تزوِّد الإعلام الخارجي بهذه المواد المسيئة لبلادنا جميعًا وليس المسلمين فقط.

أيناقشون في مصر «ختان الإناث» بعد تجريمه قانونيًّا وطبيًّا منذ سنوات؟

يعلن بعضُهم في الإعلام: «إن المرأة دون ختان ناقصة الإيمان، وإنه واجب إسلامي لمنع الفتنة في البلاد.»

كيف يا أصحاب الشورى والمستشارين؟

يقولون: «لأن المرأة «المختونة» عفيفة الأخلاق، لا تُثار جنسيًّا، لكن المرأة «غير المختونة» تُثار بسرعة لمجرد لمس الرجل لها في الطريق.»

على الشاشة في ميشيجين رأينا شيخًا مصريًّا له لحية طويلة يقول هذا الكلام.

مُنتهى الجهل بحقيقة المرأة.

انفجرت القاعة ضحكًا عليه، فالملايين أو البلايين من نساء العالم، بمن فيهن نساء أمريكا الشمالية والجنوبية وأوروبا الشرقية والغربية والسعودية والكويت والعراق وسوريا والأردن والمغرب وتونس وليبيا والجزائر وغيرهن، كلهن غير مختونات، فهل تحدث الفتن وتنهار الأخلاق بسبب عدم ختانهن؟

قالت أستاذة أمريكية في علم الجنس الاجتماعي: «تزيد شهوة المرأة بالختان؛ لأنها تنشُد الخلاص من اللذة أو الشهوة دون جدوى، ثبُت أيضًا أن أغلب المومسات مختونات.»

وظهرت على الشاشة صورة مستشار مصري آخر، يُعلن أن الختان للجنسين مُفيد؛ لأنه يساوي بين الرجال والنساء!

ضحك أستاذ جزائري وقال: «المساواة في القهر عدل.»

ثم رأينا صورة د. مُرسي، يُصافح رئيسات البرازيل والأرجنتين وأستراليا مصافحة سياسية، يقوم بها السياسيون جميعًا رجالًا ونساءً في كل العالم، يتعانقون، يتبادلون القُبلات فوق الجبهة أو الخدين، لا يحدث أن يُثار أحدُهم جنسيًّا لمجرد هذه المُلامسات الآلية العابرة.

ظهر شيخ مصري، من ذوي الفتاوى، وانتقد الرئيس المصري قائلًا: «المُصافحة بين الجنسين مُحرَّمة في الإسلام؛ لأن يد الرجل تُلامس يد المرأة، والحديث النبوي يقول: «لئن يُضرَب أحدُكم في رأسِه بمخيطٍ من حديدٍ خيرٌ له من أن يمسَّ امرأةً لا تحِلُّ له».»

وظهر شيخ آخر قال: «نعم هذا صحيح، لكن «الضرورات تُبيح المحظورات» حسب المبدأ الإسلامي.»

قالت طالبة برازيلية: «أيكون الرجل المسلم مغلوبًا بشهوة الجنس إلى هذا الحد؟»

هذا الحوار في مصر يُسيء للإسلام أكثر من الفيلم الأجنبي، الذي أشعل المظاهرات في البلاد الإسلامية.

قلت لهم: «كان أبي مُسلمًا، تخرَّج في الأزهر ودار العلوم عام ١٩١٩م، وكان على درجة عالية من الأخلاق، يُصافح النساء وكل الأجناس، لم يتزوج إلا أمي، وأخلص لها حتى النهاية، أدخلني الجامعة وجميع أخواتي البنات الخمسة، شجَّعنا على الدراسة إلى جانب الرجال، واكتساب العلم والأدب، لم يفرض علينا الحجاب، لم يتدخل في حياتنا الخاصة أو العامة، لم يكن وحده، بل أغلب الآباء في مصر كانوا كذلك.»

الخميس ٤ أكتوبر ٢٠١٢م مسيرة كبيرة، تُنظِّمها الحركة النسائية المصرية مع العديد من المنظمات الشعبية، نساءً ورجالًا، تتجمَّع هذه القوى من شعب مصر العظيم، الذي قام بثورة يناير ٢٠١١م، وخلع رأس النظام الفاسد، للإعلان بصوت واحد: «حقوق النساء هي حقوق الشعب كله»، «لا حرية ولا عدالة ولا كرامة دون النساء»، «لا ثورة دون النساء»، «لا دستور دون النساء».

ماذا يحدث للنساء باسم الإسلام؟

أجلس في مقعدي بالطائرة من مدينة كراكو «في بولندا» إلى مدينة ديترويت في ولاية ميشيجين بأمريكا الشمالية (مرورًا بمدينة وارسو وباريس)، حوالي خمس عشرة ساعة في الجو، أقرأ فيها صحف العالم، شمالًا وجنوبًا، أمامي رُزمة الجرائد بلُغات متعددة، منها العربية والفرنسية والإنجليزية والبولندية والألمانية، أرشف القهوة السوداء المُرَّة، مع الأخبار الأكثر مرارةً وسوادًا، القادمة من المنطقة التي يسمونها الشرق الأوسط، منذ الاستعمار البريطاني في القرن ١٩، حتى الاستعمار الأمريكي في القرن ٢١: مصر واليمن وتونس والعراق وسوريا ولبنان وإيران وباكستان وأفغانستان، وغيرها.

تبدو العناوين الرئيسية متشابهة رغم اختلاف الحروف الأبجدية، تعرَّفت على بعض الكلمات البولندية أثناء زيارتي الأخيرة لمدينة كراكو، حيث زُرت متحف شيندلر، ومحارق الغاز، في منطقة «أوشويدس» سيئة السُّمعة الشهيرة، منذ فيلم المخرج سبيلبرج، قُلت للمرشدة البولندية، ونحن داخل محارق الغاز، وأنفاسي تكاد تنقطع من انعدام الأوكسجين: هل تريدون خنقنا هنا في كراكو؟

ضحكت المرشدة البولندية وقالت: ربما هناك محاولة لتصوير بشاعة ما حدث من تعذيب لليهود، لكن الحقيقة يا سيدتي أن ضحايا هتلر والنازية في محارق الغاز، من سنة ١٩٣٩م حتى ١٩٤٥م كانوا بالآلاف، من شعوب ٤٣ دولة، داخل أوروبا وخارجها، نساء وأطفال ورجال، من غير القادرين على العمل، من مختلف العقائد والأديان، وليس فقط من اليهود، لكن الاستعمار البريطاني (والأوروبي) تعمَّد نشر الإشاعة أن اليهود فقط كانوا الضحايا، من أجل تبرير إنشاء دولة إسرائيل في فلسطين عام ١٩٤٨م، وها هي دولة إسرائيل تفعل بالشعب الفلسطيني ما فعله هتلر بهم وأكثر.

كانت الأمطار تُبلِّل ملابسنا، فقد خدعتنا الشمس في الصباح بقوتها ودفئها، فتركنا المعاطف بالفندق والشماسي.

ضحكت المرشدة وقالت: الشمس تخدعنا مثل التاريخ الرسمي الأوروبي، نحن الشعب المسيحي في بولندا عانينا من عذاب النازية أكثر من اليهود. ثم سألتني: هل قرأت الأخبار السيئة الأخيرة ضد النساء في مصر وتونس وطالبان؟

لم يكن عندي الوقت لقراءة شيء إلا في اليوم التالي، وأنا بالطائرة أقرأ صحف العالم، ماذا يحدث للنساء والبنات باسم الإسلام؟ إطلاق الرصاص على الأطفال البنات تحت حكم طالبان، لمجرد سعيهن إلى العلم والمعرفة في المدرسة، والانقضاض على حقوق النساء التونسيات وكرامتهن تحت الحكم الإسلامي الجديد، حتى تاريخ المرأة التونسية يتم تشويهه.

هذه السطور من بيان لتحالف نساء تونس في ٢٠ أكتوبر ٢٠١٢م:

لم نتصور أن ثورة تونس الشعبية العظيمة سوف تتمخض عن هذا الحكم الذي يُهدر حقوق النساء وكرامتهن تحت اسم الإسلام، حتى الرائدات المناضلات يتم تشويه تاريخهن المشرِّف، منهن السيدة عائشة المنوبية التي ثارت ضد الظلم وضحَّت بالزواج من أجل العلم، ودعت (مثل رابعة العدوية) إلى جوهر الدين وليس الطقوس والقشور، وكانت تحمل الماء، وتطفئ به نار جهنم، أو تحمل شعلة تضيء بها الجنة، رمزًا إلى عمل الخير حبًّا في الخير، وليس طمعًا في الجنة أو خوفًا من الجحيم.

والبنات الأطفال المقتولات تحت حكم طالبان، منهن الطفلة «مالالا» التي صوَّبوا الرصاص إلى رأسها؛ لإصرارها على التعلُّم ورفض الحبس داخل جدران البيت، وأطفال بنات وفتيات تلميذات، حُرقت وجوههن بماء النار؛ لخروجهن إلى المدرسة، أو عدم ارتداء النقاب أو الحجاب.

في مصر تعمَّدت مُعلِّمة منتقبة إرهاب تلميذة طفلة، بقص شعرها بالقوة؛ لعدم ارتدائها النقاب.

أهذه هي نتيجة الثورة الشعبية المصرية العظيمة التي أطاحت برأس النظام السابق الفاسد؟

هل خرجنا إلى الشوارع والميادين منذ ٢٥ يناير ٢٠١١م لإخفاء وجوه البنات، أو من أجل تطبيق ما يسمونها «أحكام الشريعة»؟ نحن خرجنا وأُهدِرَت دماؤنا وفُقِئت عيوننا من أجل الحرية والعدالة والكرامة للجميع نساءً ورجالًا، فقراء وأغنياء.

من هو وزير التعليم الذي أصدر قرارًا بفرض الحجاب على تلميذات المدارس؟
ومن هو الوزير الذي سكت على هذا القرار ولم يعترض عليه بالاستقالة من منصبه؟
وماذا فعل وزير التعليم الحالي أو رئيس الوزراء أو رئيس الدولة لإبطال هذا القرار؟
وهل فرض الحجاب على البنت الطفلة هو الحرية الجديدة تحت الحكم الإسلامي؟

حين جاء باراك أوباما إلى القاهرة في يونيو ٢٠٠٨م، قال إن المرأة المصرية حرة في اختيارها الحجاب أو النقاب، أهذه هي الحرية والديمقراطية الأمريكية التي تتبعها الحكومات المصرية منذ السادات حتى اليوم؟

هل تذكرون الأب المصري الذي تعاون مع زوجته في ضرب طفلتهما حتى ماتت؛ لأنها خلعت الحجاب في يوم شديد الحرارة؟

والسؤال الذي يهرب منه الكثيرون:

ما هي القوى السياسية والاقتصادية الخارجية والداخلية التي موَّلت وشجعت ودربت على السلاح هذه التيارات السياسية الإسلامية، على رأسها طالبان والجهاديون الإسلاميون، من أفغانستان إلى باكستان إلى الجزائر ومصر وتونس وسوريا والعراق وإيران والأردن واليمن وغيرها؟

أليست هي الحكومات العربية والإسلامية المتعاونة مع الاستعمار الأمريكي الأوروبي الإسرائيلي؟

لا يكون العلاج بوضع المراهم على الجروح، أو أن يُصدر وزير التعليم قرارًا بنقل المعلمة أو فصلها أو سحلها، فهي امرأة مُضلَّلة بالتعليم الهابط والإعلام والثقافة والسياسة الأكثر هبوطًا، مثل غيرها من أفراد الشعب المصري، العلاج هو باستئصال الأسباب التي أدت إلى تصاعُد قوة التيارات السياسية الإسلامية إلى هذا الحد، العلاج بكشف العلاقة بين الاستعمار الأمريكي الأوروبي الإسرائيلي والحكومات المصرية والعربية وغيرها من الدول الإسلامية، العلاج بثورات شعبية جديدة، لإسقاط الحكومات الدينية في كل الدول، ومنها الحكومة اليهودية في إسرائيل، والقوى المسيحية المسيطرة على السياسة والانتخابات والأسواق المالية والتجارية في أمريكا وأوروبا.

العلاج ليس فقط بإصدار قرار بمنع النقاب والحجاب في المدارس، سواء على التلميذات أو المعلِّمات، ولكن بفصل الدين عن التعليم والدستور والثقافة والفنون والقوانين العامة في الدولة، والقوانين الخاصة في الأسرة.

لا بد من إصدار قانون يُعاقب الأم أو الأب الذي يفرض الحجاب على ابنته في مرحلة الطفولة أو بعدها.

يجب تنقية الدستور من كل المواد والكلمات التي تُشير من قريب أو بعيد إلى أحكام دينية تتعلَّق بالدولة أو الأسرة أو الحقوق الشخصية والعامة للنساء والرجال.

هذا واجب كل فرد من شعب مصر العظيم الذي استطاع دائمًا أن يتخلَّص من كافة أنواع العبودية سياسية أو دينية أو غيرهما.

الفصل الثالث

سقوط الأب ونزاهة القاضي

الأدب والثورة في جنوب أفريقيا

أشرقت الشمس في جوهانسبرج صباح ١٩ نوفمبر ٢٠١١م، حيث ينعقد المؤتمر الأدبي الأفريقي للكاتبات، أتعرف على كثير من الوجوه التي قابلتُها في المؤتمرات الأفريقية الأدبية خلال الأربعين عامًا الماضية من جنوب أفريقيا إلى شمالها وشرقها وغربها، أكبرنا سنًّا هي نادين جوردمار، وقد بلغت الثامنة والثمانين من العُمر، قدَّمت روايات مبدعة عن الحكم العنصري «الأبارثايد» في جنوب أفريقيا، كانت زميلة نلسون مانديلا في حزب المؤتمر والنضال الثوري، أصبح بلدها جنوب أفريقيا يفخر بها بعد حصولها على جائزة نوبل للأدب.

نلسون مانديلا اعتزل العمل، ويعيش بعيدًا عن السياسة مع زوجته الأخيرة.

الشباب يلتفون حول «ويني» زوجته السابقة، فهي تتبنى قضاياهم في حزب المؤتمر الحاكم الآن، تتمتع «ويني» بسُمعة وطنية جيدة بسبب نضالها الدائم ضد الحكم العنصري، رغم طلاقها من نلسون مانديلا، بل بسبب الطلاق تحرَّرت من ظِل زوجها الحاجب لها، وانطلقت في نضالها وحدها مع الشباب، أصبح للشباب قوة كبيرة داخل الحزب، حدث انقسام فِكري بين الشباب داخل الحزب الحاكم والقيادات الحكومية، يميل الشباب إلى الحلول الثورية الجذرية وليس عمليات الإصلاح البطيئة الحكومية، البطالة بين الشباب ارتفعت إلى ٤٥٪.

تحرر جنوب أفريقيا سياسيًّا، لكنه لم يتحرر اقتصاديًّا، لا تزال الثروة والأرض بيد السكان البيض الذين حصلوا على هذه الأراضي والأملاك الكبيرة خلال الحكم العنصري، ولا زالوا يحتفظون بها، الفروق الطبقية بين البيض والسود كبيرة، والفساد ينتشر بين أصحاب السلطة.

لا تزال مناجم الذهب والماس وثروة البلاد تحت سيطرة الشركات البريطانية والأوروبية وأمريكا أيضًا، تذهب خيرات جنوب أفريقيا إلى الخارج، وليس لعلاج البطالة بين الشباب والفقر المتزايد.

يريد الشباب تأميم مناجم الذهب والماس والبنوك والشركات، لكن الحكومة تخشى رد فعل القوى الاستعمارية واليمين داخل البلد.

يريد الشباب عدالة توزيع الأراضي والثروة، وإن اعترض أصحاب الأرض البيض، فيجب على الحكومة الاستيلاء على الأراضي بالقوة، لكن الحكومة تخشى رد الفعل، ولا تُريد أن تفعل ما فعله «موجابي» في زيمبابوي حين استولى على الأرض بالقوة، وتدهورت الأمور الاقتصادية في زيمبابوي، وانقسم الشعب، وتوغلت القوى الاستعمارية واليمين الرَّجعي هناك.

المعركة دائرة اليوم داخل الحزب الحاكم، ويتنبأ الشباب والشابات من الكُتَّاب والكاتبات بانفجار الثورة قبل الانتخابات القادمة، هذا إن لم تُقدِم الحكومة على إجراءات أكثر ثورية، وتعالج الفساد داخلها وخارجها.

دار الحوار في مؤتمر الكاتبات ثريًّا خصبًا بسبب ثورية الشابات الكاتبات، وانضمامهن إلى زملائهن الشباب.

قالت نادين جوردمار إن المشكلة الرئيسية في جنوب أفريقيا الآن هي الفساد، وقالت أن ليس لديهم مشكلة التيارات الدينية الأصولية كما الحال في بلادنا، لكن كاتبة شابة قامت وعارضت نادين جوردمار قائلة إن لديهم مشكلة التيارات المسيحية السياسية المتصاعدة المتعاونة مع اليمين، وبعض فلول الحكم العنصري من البيض والسود، المشكلة ليست لون البشرة، لكن المشكلة في الفِكر العُنصري الرأسمالي الاستعماري، وقالت: «لا بُد من فصل الدين عن الدولة، ورفع المستوى الأخلاقي، بسَنِّ قانون جديد للأُسرة يفرض على الرجل زوجة واحدة كما يفرض على المرأة زوجًا واحدًا، الرجل في جنوب أفريقيا يستطيع الجمع بين أربع زوجات في ظل القانون الحالي، وكثير من الأطفال يُشرَّدون بسبب ذلك، بالإضافة للقهر والمهانة التي تعيشها النساء.»

وشرحت كاتبة شابة أخرى كيف تلعب القوى الخارجية والداخلية دورًا لتشجيع التيارات الدينية السياسية في جنوب أفريقيا، خوفًا من الثورة الاقتصادية الاجتماعية التي تنشد عدالة توزيع الثروة والسلطة، كما شرحت كيف لعبت منظمات المجتمع المدني دورًا في تقسيم الشعب، كما لعبت المنظمات النسائية غير الحكومية دورًا في فصل قضية المرأة

الأفريقية عن قضايا التحرير الوطني الكلي، على غرار ما حدث في كثير من البلاد، ومنها مصر والبلاد العربية.

خُصِّصَت إحدى جلسات المؤتمر لحوار أدبي بيني ونادين جوردمار، لكن السياسة غلبت على الأدب، طغت الثورات في مصر وتونس واليمن على الحوار، رغم محاولة بعض الأدبيات فصل الأدب عن السياسة، لكن أغلبية المشاركين والمشاركات في المؤتمر كانوا متعطِّشين لمعرفة ما يدور في بلادنا من ثورات شعبية وكيف تُلهمهم كما ألهمت العالم.

في كلمتي يوم افتتاح المؤتمر تحدَّثت عن علاقة الإبداع بالتمرُّد والثورة، وأن الأدب الصادق لا ينفصل عن السياسة الصادقة، والعلم الصادق لا ينفصل عن الفن الصادق، فالإبداع الحقيقي هو القدرة على الربط بين المجالات جميعًا، وأيضًا ربط العام بالخاص، وأننا في حاجة إلى ثورة في التعليم والتربية والأخلاق والدستور وجميع القوانين بما فيها قانون الأسرة، وليس فقط الثورة السياسية لتغيير الحاكم أو الحكومة، أو إجراء انتخابات جديدة لتغيير الوجوه في البرلمان في حين يظل النظام كما كان.

عنوان المؤتمر الأدبي: ارفعي صوتكِ تكلَّمي، لا تتخلِّي عن أحلامك، اقرئي، استعيدي وجودك في العالم ككاتبة وامرأة أفريقية.

مرافقي شاب روائي حدَّثني عن روايته الأولى التي نُشرت منذ أيام قليلة، قال لي إنه مناضل ثوري داخل حزب المؤتمر منذ عدة سنين، وقد رأى أن الرواية الأدبية قد تكشف الفساد السياسي والأخلاقي والاجتماعي أكثر من الدراسات والخطب والمقالات، واتفقت معه معظم الروائيات الشابات من البلاد الأفريقية المختلفة، وقلت لهم إن الخيال يكشف الحقيقة إن كان الخيال صادقًا، لكن نظام التربية والتعليم يدرب الأطفال على الخوف والكذب حتى في الخيال.

الصحف الصادرة في جوهانسبرج خلال الأيام الثلاثة للمؤتمر الأدبي تتحدث عن فضائح لبعض المشاهير في مجال الفن والسياسة ونجوم الرياضة، كيف تلعب الحرية الجنسية للرجال دورًا في ضعف الضمير وانعدام المسئولية، كما ظهرت صورة باراك أوباما يُقبِّل فم رئيسة وزراء أستراليا بعد أن اتفقا معًا على تعزيز القوة العسكرية الأمريكية في أستراليا وآسيا لتوجيه ضربة لقوة الصين المتصاعدة.

أصبحت أمريكا تُعلن على الملأ تدخُّلها العسكري في أي بلد حتى الصين، وكانت تفعل ذلك في السر حياءً وخجلًا، أما الآن فقد خلعت بُرقع الحياء تمامًا، وأصبح أوباما أكثر عدوانية من جورج بوش الأب والابن والرُّوح القدس.

وكشفت الصحف أيضًا عن ارتفاع مُعدَّلات البطالة بين الشباب في العالم كله بسبب جشع الرأسمالية الشرسة التي تحكم العالم، بلغت البطالة في إسبانيا ٤٥٪ مثلها في جنوب أفريقيا، في اليونان البطالة وصلت إلى ٤٣٪، وفي بريطانيا ارتفعت البطالة حتى انفجرت الثورة في سان بول، ومثلها في وول ستريت، وفي أكثر من ثلاثين مدينة أخرى في العالم ثارت الشعوب ضد الفقر والبطالة.

اختتمت كاتبة شابة المؤتمر الأدبي في جوهانسبرج قائلةً: «نعم الثورات تشتعل في كل بلد، ونحن هُنا في جنوب أفريقيا سوف نقوم بثورتنا الثانية قبل الانتخابات القادمة.»

امرأة ليس لها رأس

نظرت إلى نفسها في المرآة، لم يكن رأسُها موجودًا، صرخت بالفزع دون أن يخرج صوتها.

رجلٌ صوتُه غريب يُناديها من الصالة، اسمه محفور فوق رُقعة نحاس على باب بيتها، وفوق بطاقتها الشخصية، وفوق جسدها في النوم، وفوق كراريس أطفالها، وفوق جبينها قبل أن تولد.

يُناديها الناس، في حياته وبعد موته، حرم السيد، اختفى اسمها مع رأسها.

أمسكت القلم وكتبت «الرأس»، أصبح للكلمة وجود مادي فوق الورق، خلقت بالكتابة شيئًا من اللاشيء، أحسَّت بالسعادة.

قالوا لها: «الخالق ليس له شريك، فما بال شريكة من الجنس الآخر؟»

أصبحت لعنتها مُضاعَفة (امرأة وكاتبة).

تتجوَّل بين البشر دون الدُّخول في مجال رؤيتهم، كُتلة رخوة سوداء، كيس مملوء بالقش أو بالقطن، إن هي دخلت مجال الرؤية ينتابُهم الرعب، تراهم من الثُّقبين في قمة الكُتلة السوداء، يهتز جسدها نشوةً لكل رجل لا يمكنه إبعاد عينيه عنها، ترجُّ النشوة بؤرة الرُّوح في جسدها مع الحنين الطاغي للحب.

تكتُب سرًّا في الليل:

«أنتم لا ترون إلا جسدي، إن رأيتم وجهي تقعون في حبي، يخلو جسدي في عيونكم من الجمال، لكن جمال رُوحي أبقى وأرقى.

الجسد أعلى مرتبةً من الرُّوح في نظر الرجال المادي، لكن الرجل الرُّوحاني يخترق جسدي إلى بؤرة رُوحي.»

في مكان العينين يوجد الثقبان، مُقلتان لونهما أسود من الليل، بياض العينين أصفر مُبقَّع بالدم، رموشُها مُرتعدة تُشبه رُموش السمك الميت، شعرها المجعَّد مثل فروة الخروف المذبوح في العيد.

تكتب:

«لا يغسل الدم إلا الدم، ولا يعالج الجروح إلا الجروح.»

الشَّعر ينمو في الظلمة فوق شفتها العُليا والصدغين والجبهة والأنف، البلولة من تحت الجلد تروي جذور الشعر، وقطرات تسقط من بين الجفون، ورخاوة المخ داخل الجمجمة، لحيتها تنمو وشاربها. يزيد قُبح المرأة بازدياد شعرها، يقولون إنها الشيطان، الرجل يزيدُه الشَّعر شبهًا بالفلاسفة والأنبياء.

جلدُها مَلمَسُه خشن، جذور الشعر المنزوع بالقوة تركت فوق الجلد ثقوبًا واضحةً مثل الدمامل والبثور، تُشبه جلود الأسماك المنزوعة القشرة، تتناول حبوبًا تُعالج هشاشة العظام، اللحم المتراكم ينحشر داخل قميصها الداخلي، جسدُها يتدلَّى رخوًا داخل جلبابها الواسع الطويل، هل يقع أحد في حُب هذا الجسد مهما بلغت الرُّوح من الجمال؟

عندما تزوجت السيد كانت صغيرة، كان عجوزًا أحدب، متعدد الزوجات، له أحفاد من عمرها.

قالوا: «جسدُه قبيح، لكن رُوحه جميلة.»

صرخ الأطفال حين رأوه: «بشع!»

رأسها تحت الكُتلة الصمَّاء بعيدًا عن الشمس والهواء، تحمل عيناها رعب العالم فوق بياضها المبقَّع بالدم، وسوادها الباهت المسحوق بلون الرماد.

قال الطبيب: «اكشفي رأسك للشمس.»

قالت له: «كشفُ جسدي معصيةٌ صُغرى، كشفُ رأسي معصيةٌ كُبرى.»

سألها الطبيب: «إذا كان للحب الرُّوحي بؤرة في جسدك، فأين تكون؟»

أصبحت أرملةً شابةً تبحث عن رزقها، قرأت إعلانًا: «مُخرج يبحث عن امرأة مُنتقبة»، فكرة الظهور على الشاشة أصابتها بالنشوة.

قال المخرج: «لا نُخرج أفلام الرعب.»

قالت: «طلبتم امرأة مُنتقبة، أليس كذلك؟»

قال: «هناك نقاب يُثير الخيال الحِسِّي أكثر من العُري الكامل.»
قالت: «الجمال إحساس داخلي ينبع من الرُّوح.»
قال: «لا نُريد رُوحك، ويمكن بالماكياج عمل نقاب لك مُثير لغرائز الرجال.»
قالت: «نعم ما دُمت لا أكشف رأسي.»

سقوط الأب ونزاهة القاضي

الصَّوت يسري إلى الابن من خلال الجدار، يضغط بيديه فوق أذنيه، يدُس فيهما القطن. أنين أمه مكتوم، رائحة دخان وجسد يحترق، هل جاء العيد الكبير والخروف المشوي؟

منذ طفولته يكره الأعياد وأكل اللحوم.

يضغط بالوسادة فوق رأسه، ناعمة كصدرِ أُمِّه، يحوطها بذراعيه، يدفن فيها وجهه، عطرها ورائحة جسده شيء واحد، يمسح في الوسادة بلولة عينيه وأنفه، يتسرَّب أنينُها إلى أذنيه، ينقلب فوق وجهه متظاهرًا بالنوم، ثم ينقلب فوق ظهره، لكن الأنين يَسري عبر الجدار بين غُرفته والغرفة الكبيرة، حيث ينام أبوه وأمه في سرير واحد.

منذ طفولته يسمع أنينها، تصنع له طعامه، تُغطيه بالليل إن تعرَّى، لا تصفعه إن مزَّق الجورنال، تغني له قبل أن ينام، تُحب الموسيقى والغناء، لم تلمس أصابعها الكمنجة منذ تزوجها أبوه، وضعتها في قاع الدولاب، داخل كيس من الجسد الأسود، له رائحة الحذاء.

في الصباح قال أبوه: «أمك ماتت.»

لم يكن يصدق ما يقوله أبوه، رأى في عينيه بريقًا لم يكن موجودًا، كشف وجه أمه ليعرف الحقيقة، وجهها أبيض بلون الملاءة، إلا مساحة سوداء، لها شكل كف أبيه، محفورة في خدها.

ظل الابن واقفًا يُحملق في الفراغ، تركت أمه فوق السرير مساحة منخفضة قليلًا لها شكل جسدها، والوسادة ما تزال تحمل عطرها، وفُستانُها مُعلَّق على الشمَّاعة، وحذاؤها تحت السرير، عاد الأب فوجد ابنه واقفًا في مكانه، رفع الابن عينيه إلى عيني أبيه، يتأمل البريق الجديد، يأكل الأب – بشهيَّة – صينية البطاطس، التي صنعتها أمه في الفرن، قبل أن تموت، لم يأكل الابن، يُحملق في عيني أبيه لا يطرف له رمش، سَرَت فوق جسد الأب

قشعريرةُ تُشبه البرد، مع أن الحر شديد، وضع الأب في جيب ابنه ورقة بمائتي جنيه، امتدت ذراع الابن وألقى بالورقة على الأرض، داسها بحذائه.

رن جرس الهاتف، صوتها ناعم كبطن ثعبان، تسأله عن نتيجة الامتحان، لم يذهب إلى المدرسة منذ موت أمه، قال لها: «نجحت بتفوُّق.» يشعر بلذة حين يكذب عليها.

دخل إلى الغُرفة الكبيرة، مساحة أمه في السرير منخفضة قليلًا، لها شكل جسدها، درج أبيه مُغلق، عاد إلى غُرفته، واستلقى فوق سريره، أغمض عينيه، وضع الوسادة فوق رأسه، أنين أمه يسري إلى أذنيه دون توقُّف.

جلس إلى مائدة الفطور، كرسي أمه خالٍ فوقه الشلتة الخضراء، يختفي وجه أبيه وراء الجورنال يرشف الشاي، قطع الصمتَ أبوه يسأل عن الامتحان، قال: «نجحت بتفوُّق.» ابتسم الأب، لم يبتسم الابن، قفزت القطة فوق الشلتة الخضراء مكان أمه في الكرسي.

قال الأب: «أمك ماتت يا ولد، هذه حقيقة.»

قال الابن: «لم تكن ميتة دائمًا.»

مفكرة أبيه في مخبئها بالدرج، فتحه بنصل السكين، أمسكها بأصابع نحيلة ترتعش، سقطت قُصاصة ورق، دسَّها في جيبه، أسماء النساء بالحروف الأبجدية، تحت حرف الباء التقط اسمها وصورتها مع القطة.

عاد الابن قبل الفجر، باب الغُرفة الكبيرة مُغلق بالمفتاح، فتحه بنصل السكين دون صوت.

في الصباح وجدوا الأب راقدًا مُحملِقًا في الفراغ، وهي إلى جواره تحتل مساحة أمه في السرير.

حملوهما معًا في الصندوق الملفوف بالعلم، وحَكَمَ القاضي ببراءة الابن.

من وراء ظهرها

لم تكن فاقدة الوعي، ترى وتسمع وتشم رائحة دم، يُشبه دمَها إلا أنه ليس دمَها، طعم الموت في حلقها، ضلوعها لا تعلو ولا تهبط، الشُّعيرات الرفيعة في فتحتي أنفها ثابتة لا تهتز، الهواء يتسرَّب إلى صدرها، ويخرج في الخفاء، هل أصبح الهواء رفيقها ضد المحقق البوليسي؟ أشياء غريبة تحدث من وراء وعيها، قُوَى خفية في جسدها لم تعرفها، أصبحت قادرة على القفز إلى النافذة الصغيرة القريبة من السقف، قفزة واحدة فوق قدميها لتقبض على القضيب بيديها الاثنين، قفزة أخرى لتطل من بين القضبان على السماء، من تحت السحابة السوداء تُطل العين المفتوحة، تغمز لها بنظرة غير مفهومة، في حاجة إلى مفسِّرين وأسفار وبحار.

جسدُها لم يعُد جسدَها، أصبح كالأميبا وحيدة الخلية، حملت جسدَها ثلاثة وأربعين عامًا دون أن تعرفه، يتغيَّر ويتشكَّل كأنما جسد كائن آخر، تضع شفرة الموس بين اللثة والصدغ دون أن ينزف الدم، تُحرِّك يدها أمام عين المُحقِّق دون أن يراها.

هل أصبحت غريزة البقاء أقوى من الموت؟ تجعلها على قيد الحياة رغم عزرائيل، تبدو ميتةً لعين الرقيب العسكري، الحيَّة الرقطاء انتصرت على حواء وزوجها آدم، أتكون الزحالف الميتة أكثر قوةً من الأحياء البشر؟

لم تعُد تُحِس الضربات فوق ظهرها، يكتسب لحمُها العاري قدرةً خارقةً للطبيعة، لم يعُد جسدُها هو جسدها، وإنما جسد آخر، أبعد من النجوم وقريب كحبل الوريد، تُصيبها المُفارقة بالدهشة، تشبه اللذة الطفولية، تبتسم لنفسها في الخفاء دون انفراجة الشفتين، تختلس نظرةً إلى المُحقق، يلهث من التعب، صوته يتحشرج من كثرة ترديد السؤال: فين اللابتوب يا حمارة؟

يبدو قصيرًا سمينًا، أبيض، شفته العليا مشقوقة حتى الأنف، يرن صوته الأخنف في أذنيها المغلقتين: «فين اللابتوب يا حمارة؟» صوته يدوي في رأسها المغلَق، كل شيء في جسدها مُغلق كالقوقعة، الفكَّان الأعلى والأسفل واللسان والحلق والرئتان والكبد والقلب والضلوع وفقرات الظهر، صوتها لم يعُد يخرج، شفتاها مغلقتان بكماشة أصلب من حديد القضبان، اللابتوب خبأته وراء بلاطة وراء الحوض، لا أحد يعرف المكان إلا زوجها الوحيد، عاش الاثنان في سرير واحد ثلاثة وعشرين عامًا، أبوها مات في السجن منذ ثلاثين عامًا، ماتت أمها بعد موت ابنها في موقعة الجمل، أختها هاجرت إلى العراق لتموت في ليبيا منذ عشرين عامًا.

فين اللابتوب يا حمارة؟

لا صوت يخرج منها، راقدة فوق «البُرش» فاقدةً للذاكرة، مكان اللابتوب نسيته، لم تعُد تذكر مبادئ الثورة أو مشاعر البشر، أصبحت في دنيا أخرى، وبشر غير البشر، لكنها قادرة على تذكُّر الكلمات الأربع وراء البلاطة وراء الحوض، هذه الكلمات الأربع لا تزال في ذاكرة أخرى خارقةً للطبيعة، كل شيء فيها أصبح فوق الطبيعة، نسيت كل شيء حتى اسمها، واسم أبيها وجدها، الاسم الثلاثي في اللوح المحفوظ، التصق بجسدها ثلاثة وأربعين عامًا منذ وُلِدَت، انحفر فوق كراريسها في المدرسة والجامعة، وعقود الزواج والبيع والشراء، وشهادة التخرج والميلاد والوفاة، ودفاتر السجن وعيادات المستشفى وتحقيقات النيابة.

فين اللابتوب يا بنت الـ...؟

الصوت الحاد الأخنف يزداد فُجرًا، الضربات فوق ظهرها تزداد عُنفًا، القوقعة من حولها تزداد صلابةً في بؤرة القوقعة شعرة حريرية تربطها بنقطة شفافة غير مرئية، قطرة من حياة سحرية، الكلمات الأربع، تشم الرائحة وراء البلاطة المبللة بماء الحوض، رائحة إلكترونية غير بشرية، لا تشمها الكلاب البوليسية ولا أجهزة التجسُّس، تفوق العقل.

تدور الكلمات الأربع في ذاكرتها على شكل قطرات ماء، تذوب في قطرة واحدة مُركَّزة في البؤرة، في النقطة التي بدأت منها حياتها منذ ولدت، وامتدت على طول السنين ثلاث وأربعين سنة، حتى هذه الدقيقة أو الثانية، خيط طويل بدأ بنقطة واحدة، وما زال ممتدًّا إلى تلك القطرة الهلامية الشفَّافة، داخل القوقعة كالجنين في بطن أمها تحوطها.

فين اللابتوب يا بنت الـ...؟ هتاخدي إيه من السكوت؟

لا تعرف ما تأخذه من السكوت، وما حقيقة هذا الخيط الطويل الممدود بين نقطتين مجهولتين؛ إحداهما فرضتها على نفسها في حياتها، والأخرى مفروضة عليها في حياة أخرى، عن يقين تعرف أن اللابتوب في مكان أمين، لا يعرفه أحد من الإنس أو الجن إلا هو، الوحيد زوجها الأوحد في حياتها، أيمكن أن يفتح فمه ليتنفس، أو ليلهث، فتخرج من شفتيه الكلمات الأربع؟ أيمكن أن يحدث هذا؟ إن مجرد التفكير في إمكانية حدوثه يُزلزل كيانها.

لا تزال موجودة، لم يُدركها الموت، تتعلق بآخر قطرة دم، بآخر نفس، بالخيط المشدود بين النقطتين، الاثنتين معًا في خيط واحد، إن زالت نقطة منهما تزول الأخرى، وينقطع الحبل السُّرِّي.

كل شيء يبدو غامضًا غير مفهوم، يُشبه جوف الرَّحِم قبل الولادة، فما هي القضية التي تعيش وتموت من أجلها؟

الوفاء للآخرين في الثورة؟ لكن الآخرين لم يعُد لهم وجود في حياتها الآن، إن جسدها الذي هو أقرب الآخرين إليها لم يعُد موجودًا، تفصله عنها مسافة ما مجهولة، المسافة بين الأرض والسماء، أو الشَّعرة الرفيعة المشدودة بين النقطتين المجهولتين، الولادة والموت.

لماذا ترفض النطق بالكلمات الأربع؟ لا تحاول التفكير في الإجابة، نسيت كيف تفكِّر، لكنها تُحس بشيء غريب جدًّا، إن كل شيء في حياتها وموتها يتوقف على عدم النطق، استمرار بقاء هذه الشَّعرة ممدودةً بين النقطتين، تحمل الهواء والماء إلى القطرة الحبيسة في أعماقها العميقة، الذرة الكامنة في البؤرة داخل البؤرة، المتفجرة إلى ذرات متناهية الصِّغر لا متناهية العدد، استقرت واحدة منها في بؤرة القلب، تلعقها دون وعي، ترشفها دون شفتين، تتقوقع حولها، متشبثةً بها منذ الأزل وإلى الأبد.

لم تعُد تسمع صوت المُحقِّق الأخنف، ربما ذهب إلى دورة المياه، ربما يتحرر من الألم المتراكم في المثانة والضمير، ربما أراد أن يتوضأ ليصلي الصبح ... أو المغرب، لم تعُد تعرف النهار من الليل، ربما جاء بعده زميله الآخر، لكن الصوت هو الصوت، الضربات فوق الظهر هي الضربات، يرتفع الكرباج يلسع الهواء، ثم يهبط ليرتطم بشيء له طراوة اللحم، لكنه ليس لحمًا، أو على الأقل ليس لحمها هي بالذات، وإنما لحم آخر غير بعيد عنها، تفصله مسافة شَعرة رفيعة، لكنها مسافة على أيِّ حال، تُبعدها عن اللحم المضروب.

لو كانت بغلة أو جاموسة ربما ماتت من الضرب، لكنها ليست بغلة أو جاموسة، إنها إنسانة من بنات وبني حواء وآدم، تتغلب على الشياطين، وتنتصر في النهاية، كيف

تنتصر؟ لا تكاد تصدق أنها انتصرت، تحاول كتمان الفرح عن العين الحديدية التي لا ترمش، والزهو أي زهو، كانت قادرة على السكوت وعدم النطق، وجهاز اللابتوب لا يزال في مكانه الأمين، والثورة تستمر في الفضاء عبر الخيط الممدود بين النقطتين.

ثم جاء الصوت الأخنف يقول: «وراء البلاطة وراء الحوض يا مغفلة.» إنه الصوت الأخنف، لكنه أكثر قوة، يدوي في رأسها كالزلازل والبراكين، إنه المحقق ذاته بفمه المفتوح على أنفه، ينطق كلمة السر، لم يعرفها إلا هو وهي، عاش الاثنان في سرير واحد ثلاثة وعشرين عامًا، لم تعرف تمامًا ماذا حدث، هل انفجر شريان في رأس الكون؟ وانقطعت الشَّعرة الممدودة بين السماء والأرض؟

معالي الوزير ساقط قيد

ضعي يدك على رأسي يا أمي، كما كنتِ تفعلين وأنا طفل، أنتِ الوحيدة الباقية لي، لِمَ تُعاتبينني؛ لأني لم أزُرِكِ منذ عشرين عامًا، لم أنشغل عنك فقط، انشغلت عن العالم كله حتى نفسي، حتى زوجتي وأصدقاء طفولتي، وابنتي الوحيدة لم أكن أراها، حتى وجهي يا أمي لم أكن أراه، أُلقي نظرة سريعة للمرآة قبل أن أخرج من البيت، لأُحكم الكرافتة حول عُنقي، وأتأكد أن لون القميص ينسجم مع لون البدلة، إن نظرت إلى وجهي في المرآة لا أراه، لم أكن أعيش في عالمكم يا أمي، هل يمكن أن أعيش في عالم آخر دون أن يتوفاني الله؟ لم أقرأ نعيي في صفحة الوفيات، لا يمكن لوزير مثلي أن يموت دون أن يُنشَر نعيُه كبيرًا في كل الصحف والإعلام، وتُنظَّم له جنازة مهيبة يمشي فيها الناس صفوفًا صفوفًا، يتوسط الصف الأول الباشا الكبير، مرتديًا كرافتة سوداء، يُخفي دموعه وراء نظارة سوداء، مشهد كان يهزني من الأعماق، كان انشغالي عن عالمكم يا أمي بغير حدود، بأكثر مما يحتمل جسدي وعقلي، كان جسدي يكف عن الحركة أحيانًا من شدة الإرهاق، لكن عقلي يظل يشتغل، وقد يُرهق عقلي، فيكف عن العمل! لكن جسدي يظل يتحرك، يروح ويجيء يذهب إلى المكتب، يرأس الاجتماعات أو المؤتمرات، يستقبل الوفود في المطارات، يحضر الحفلات، وقد يسافر إلى الخارج في مهام رفيعة المستوى، كنت يا أمي أندهش حين أرى جسدي يتحرك وحده بغير عقلي، بل كنت أخاف إن كنت في اجتماع مهم يقتضي التركيز والانتباه، كان الاجتماع المهم الوحيد هو الذي يرأسه الباشا الكبير.

منذ اشتغلت في الحكومة كرهت وضع المرءوس، تعوَّدت كتمان كراهيتي لرؤسائي، أُنفِّس عنها في مكتبي مع المرءوسين لي، أو في بيتي مع زوجتي كما رأيت أبي يفعل معك يا أمي، عجزت دائمًا عن التنفيس عن كراهيتي أمام رئيسي، وإن كان موظفًا عاديًّا

بالدولة فما بال أن يكون رئيس الدولة كلها! كنت أجلس يا أمي في مقعدي مشدود الجسد والعقل، منتبه الحواس، شديد اليقظة، أخشى أن يسألني سؤالًا لا أعرف جوابه، إن عرفت الإجابة أخشى ألَّا تكون هي الإجابة الصحيحة، إن كانت هي الإجابة الصحيحة أخشى ألَّا تكون الإجابة المطلوبة، نعم يا أمي هذه «ألف باء» السياسة، نتعلمها من أول درس. الإجابة الصحيحة ليست دائمًا الإجابة المطلوبة، لكن الإجابة المطلوبة هي دائمًا الصحيحة.

على الوزير منَّا أن يكون دائم الانتباه جسدًا وعقلًا لالتقاط الحقيقة الصحيحة من الحقيقة غير الصحيحة، وهي مهمة شاقة جدًّا يا أمي، كنت أجلس في الاجتماع منتبهًا بعقلي وجسدي، بالاثنين معًا، أجلس في مقعدي، يدي اليسرى ساكنة في حجري، يدي اليمنى مُمسكة بالقلم فوق الورق، جاهزًا مستعدًّا لالتقاط الإشارة، أي إشارة، إيماءة رأس غير مرئية، حركة يد أو إصبع خفية، أو الشفة السُّفلَى يُكوِّرها يمطُّها للأمام، أو انقباضة عضلة حول الفم أو الأنف أو العين اليسرى أو اليمنى، أرى الحركة قبل حدوثها، أُفسِّرها في عقلي بسرعة، عقلي يُفسِّرها أسرع منِّي، عيناي أسرع من عقلي، أذناي أسرع من الجميع تسمعان صوته قبل أن ينطلق، نعم يا أمي كنت أعتمد على حواسي الخمس في هذا الاجتماع المهم، كان الثلاثة: «جسدي وعقلي ورُوحي» يتحولون داخل مقعدي إلى كتلة واحدة عصبية شديدة الحساسية، أسلاك رادارية عارية ملفوفة حول بعضها، تصنع رأسي وذراعي وصدري وبطني، أحشاء بطني ترتعش بمسٍّ كهربيٍّ متَّصل، إن وقفت صدفة بالقرب منه ترتجف يدي اليمنى رغم أنني أُمسكها بيدي اليسرى، وكلاهما — اليمنى واليسرى — معقودتان فوق صدري، أو بطني، ساقاي أيضًا مضمومتان إن وقفت أو جلست، نعم يا أمي كانت هذه صورتي معه، حين تسقط الأضواء ليراني الناس معه أحاول أن أغير شكل جسدي دون جدوى، أحاول فك يدي اليمنى عن اليسرى، أو إحدى الساقين عن الأخرى، دون جدوى، أطرافي ثقيلة شبه مشلولة، تُطل صورتي معه في الصحف فأخجل من نفسي، أُخفي الصحف عن أسرتي، خاصة ابنتي الصغيرة كانت تشير بإصبعها الرفيع إلى وجهي من بين وجوه كبار رجال الدولة، وتقول لأمها: «ده مش بابا يا ماما.» ترد عليها أمها بكبرياء الهوانم زوجات العظماء: «ده بابا يا حبيبتي، معالي الباشا الوزير واقف في أول صف جنب السيد الرئيس.» يرن صوت زوجتي في أذني، ليس صوتها، يشبه صوتها حين تمارس الحب، تُخفي حقيقتها وحقيقتي منذ ليلة الزفاف في سرداب سحيق في أحشائها، أحسُّه تحت يدي كالدمل المزمن المتجمِّد أسفل

بطنها، لم أخجل يا أمي إلا من ابنتي، عيناها مفتوحتان على الأفق طفوليتان، كعيون الآلهة لا يطرف لها جفن، تكشف حقيقتي والغيب، كنتِ تقولين لي دائمًا إن الأطفال مكشوف عنهم الحجاب، أصبحت أخشى النظرة في عيني ابنتي، قوية ثابتة ليست نظرة طفلة طبيعية تنظر إلى أبيها، الأب وإن كان عربيدًا فاسدًا فهو الأب يا أمي، كان أبي الفاسق زير النساء والخمر والقمار هو الإله في عينيك يا أمي، كنت تنظرين إلى ابنك باعتباره الشبل من ذاك الأسد، أصبحت أسدًا يا أمي لأُرضيك، الأسد الطاغي على زوجته في البيت ومرءوسيه في المكتب، أراهم خانعين ساجدين مُطيعين فيشتد الإعجاب بنفسي، ذاتي المتفرِّدة، نعم يا أمي في حياتي كلها لم أشهد امرأةً أو رجلًا تحت سلطتي يخالفني، إلا تلك الفتاة التي جاءت إلى مكتبي قبل الثورة بشهر أو اثنين، أخرجتني يا أمي عن هدوئي واتزاني، ليس لأنها خالفتني الرأي، ليس لأنها شابة في العشرين وعاطلة تخاطب معالي الباشا الوزير، ليس لأنها أنثى تخاطب رجلًا، ليس لأنها لم تنطق لقبي المعروف «معاليكم»، ليس لأي سبب إلا أنها كان ترفع عينيها في عيني دون هيبة، هذه النظرة الثابتة وقاحة، أو على الأقل جرأة إن صدرت من رجل فما بال امرأة! استبدَّ بي الغضب، كيف فعلت هذا؟ استبدت بي الرغبة في المعرفة فاشتد غضبي، ليس منها هي، لكن منِّي أنا، طغى غضبي على نفسي، فأصدرت أمرًا بإحضارها في اليوم التالي، تركتها واقفةً أمامي، وأنا جالس خلف مكتبي الفخم، أستمد من فخامته ثقتي في نفسي، تركتها واقفة وأنا جالس داخل مقعدي الوزاري الوثير، أميل بظهري إلى الوراء أُقهقِه مُداعبًا في التلفون شخصًا لا يستحق المداعبة، أردت فقط أن أُشعرها أنها غير موجودة، أنني أضحك وأُقهقه بكل راحتي مع صديق، أو الأصح صديقة، أردت أن أُثير غيرتها من امرأة أخرى، لعبتنا المُفضَّلة نحن الذكور مع الإناث، لكنها يا أمي لم تكترث بشيء، راحت تتمشَّى في مكتبي كأنني غير موجود، كأنها في بيتها، تتأمل اللوحات على الجدران، توقَّفت عند لوحة وتمتمت بسخرية: «زهرة الخشخاش؟» حاولت أن أدرس تقاطيع وجهها قبل أن يتَّجه رأسها نحوي، لكن عينيها تحركتا، واستقرت نظرتها الثاقبة في عظام رأسي، كأنما سقطت عني ملابسي وتعرَّيت، شعرت بالخجل، تذكَّرت نظرة ابنتي، تحوَّل الخجل بسرعة إلى غضب.

فقدت أدب الباشوات مع النساء، ارتفع صوتي وقلت مشوِّحًا بيدي بخشونة ذكورية: «مين أنتي؟ مهما طلعتي أو نزلتي في النهاية امرأة! مكانها في السرير مع الرجل.» أي امرأة طبيعية كانت تموت من الخجل لسماع هذه الكلمات، كنت أريد أن أقتلها خجلًا يا أمي، لم تخجل، لم يرمش لها جفن، ظلَّت ترمُقني بسهامها النافذة لنافوخ مخي،

كأنها ليست امرأة وأنا لست رجلًا، كأنها ليست فتاة عاطلة وأنا الباشا الوزير، كأنها ليست هي وأنا لستُ أنا، كنت أشعر عن يقين يا أمي أنني أنا كما كنت، لكن باليقين نفسه شعرت أنني لست أنا، أو لم أعُد أنا كما كُنت، كرهتها حتى المرض، أصابتني حُمى الملاريا في اليوم التالي ولزمت البيت، لم تخفض كمادات الثلج سخونتي، ذهبت إلى مكتبي في الصباح التالي وطلبت الأمن، لم أهدأ حتى أدخلتُها السجن، لكن الأمر لم يكن مثل كل مرة منذ ثلاثين أو أربعين عامًا، تغير الكون يا أمي، وأصبحت البنات مثل الرجال، يتعرَّضن للضرب والاغتصاب في السجون، ثم يخرجن إلى العالم كأنما لم يحدث شيء، يهتفن في الشوارع بأعلى أصواتهن: «الحرية ... الحرية» فسدت الأخلاق يا أمي، أعني أخلاق النساء، الرجال أخلاقهم فاسدة بالطبيعة، المفجع وغير الطبيعي هو فساد النساء، ليس كلهن فاضلات مثلك يا أمي، لم يرتفع لك صوت في البيت، فما بال الشارع، بعضهن أصابهن العطب، بالذات هذه الفتاة، غضبت عليها ليس لأنها فعلت ما لم يفعله أحد، بل لأنها فعلت ما لم أفعله أنا نفسي، عجزت طول حياتي أن أرفع عيني في عيني أبي في البيت، أو رئيسي في المكتب، كنتِ أنتِ السبب يا أمي، لم أرك مرةً واحدةً ترفعين عينك في عين أبي، كان يُهينك ويخونك وأنتِ كما أنتِ، لو رفعت عينك في عينه مرةً ربما تعلمت منك الكرامة والعدل، ربما استطعت أن أرفع عيني في عين رئيسي وأقول رأيي، كنتِ يا أمي مَثَلي الأعلى في طفولتي، أفعل ما تفعلين وأُردِّد كلامك منذ علمتِني اللغة، لا يا أمي، أنا لا أُعاتبك، لكني أطلب منك أن تربتي على رأسي بيدك الحنون كما كنتِ تفعلين وأنا طفل.

مأساتي الحقيقية ليس فقدان كرسي الوزير، لكن المأساة كيف فقدته، لو أنني فقدته لخطأ مني كبير ربما خفَّت المأساة، لكني فقدته لسبب تافه غير معقول، ذلك الصباح الأسود فتحت الصحف، فلم أعثُر على اسمي في الوزارة الجديدة، أصبحت فجأةً «ساقط قيد»، كأنما سقط من فوق جسدي ولم يعُد لي اسم، والتلفون الذي كان يرن كل لحظة أصبح أخرس، أسقطني هو الآخر، والآخرون أسقطوني، هذا السقوط لم أعرفه في حياتي، لم أعرف حينئذٍ قيمة السلطة والثروة، لا نعرف قيمة الشيء إلا بعد فقدانه، وهي كارثة؛ لأن الوقت يكون قد فات، والفرصة ضاعت إلى الأبد، لم تكن الكارثة أن التلفون لم يعُد يرن، الكارثة هي اكتشافي أن رنين التلفون الدائم المزعج لم يكن يزعجني بتاتًا، بل كنت أحبه، أعشقه، أدمنتُ عشقه مثل الخمر والنساء والسلطة والثروة، أليست كلها لذائذ الدنيا منحها الله لنا؛ لأنه خلقنا ذكورًا! كنت أجري وراء نعم الله كلها لا أشبع منها،

وإن أصبح لي بدل القصر الواحد أربعون قصرًا، وبدل المرأة الواحدة أربع وأربعون، نعم يا أمي ضيَّعت كلَّ نِعم الله لسبب تافه.

كنت جالسًا ذلك اليوم المشئوم في اجتماع مجلس الوزراء، يرأسه فخامة الباشا الكبير، عن يقين كنت أنا الجالس في مقعدي، لكن بيقين آخر لم أكُن أنا، كنت شديد الانتباه كعادتي، لكني كنت عاجزًا عن الانتباه في آنٍ واحد، لأول مرة عجزت عن تركيز عقلي، أصبح عقلي يفكر دوني، خرج عقلي عن سيطرتي، ليس لانشغالي بأمر مهم، مثل التقرير السنوي الذي كنتُ سأعرضه مع الميزانية الجديدة، بل الكارثة يا أمي أن عقلي انشغل بشيء تافه، لا يا أمي، لم أكن أفكر في أي أحد، كنت أفكر في نفسي، أريد أن أعرف كيف أجلس في الاجتماع كعادتي، ومع ذلك لست كعادتي، كنت أفكر هل أنا الجالس في مقعدي أم شخص آخر، وأي واحد من الشخصين هو أنا! الكارثة أني كنت أعرف أن السبب الوحيد في هذه الكارثة هو تلك الفتاة الثورجية، منذ رأيتها وعقلي لا يكف عن التفكير فيها، ليس لأنها امرأة، لم تكن في نظري امرأة على الإطلاق، لم تكن جميلة ولا أي شيء، لكنها استطاعت أن تفعل شيئًا خارقًا للعادة، ولكل القيم التي درجنا عليها، المأساة يا أمي ليس أنها فعلت ما لم يفعله أحد، أو ما لم أفعله أنا، لكن المأساة أنها منذ فعلت ذلك وأنا لم أعُد أنا، مَن هو الشخص الآخر الجالس في مقعدي؟ السؤال كان يسيطر على عقلي دون رحمة، أطرده من رأسي بحركة متكررة بيدي اليسرى كأنما أهشُّ ذبابة عن وجهي، كانت يدي اليمنى كعادتها ممسكة بالقلم فوق الورق مستعدة لأي إشارة أو كلمة ينطقها فخامته، لفتت حركة يدي اليسرى نظر فخامته؛ لأنها تكررت، أو لأن القاعة أنظف قاعة في الكون لا يمكن أن تحلق فيها ذبابة، وإن حلَّقت، فالمفروض أن تظل يدي اليسرى ساكنةً في حجري تحت المائدة، ولا تتحرك بهذه الجرأة، تحركت عيناه نحوي يا أمي، وكنت أرتدي في كل الاجتماعات طاقية الإخفاء، حتى يمر الاجتماع بسلام فلا يوجِّه إليَّ أيَّ سؤال، لم أكن أخشى السؤال يا أمي، لم أكن أخشى ألا أعرف الإجابة الصحيحة، فهي سهلة بَدَهية: واحد + واحد = اثنين.

لكني كنت أخشى أن أقولها، نعم يا أمي لم تكن الإجابة الصحيحة هي المطلوبة، وكانت هذه هي الكارثة التي وقعت ذلك اليوم، لم أعرف من قالها أنا أم الشخص الآخر الجالس في مقعدي، حين تحوَّلت عيناه نحوي ارتجفت أحشائي، تذكَّرت عيني أبي وأنا طفل، كنت أتراجع بجسدي قليلًا إلى الوراء أو إلى الإمام كما كنت أفعل في الفصل وأنا تلميذ، بأمل أن تسقط العينان على الجالس أمامي أو خلفي، لكني في ذلك اليوم لم

أتحرك في مقعدي، كنت غائب العقل بسبب سخونة الحمَّى، أو لانشغال بالي بتلك الفتاة الثورجية، كنت جالسًا جامدًا كتمثال فوقعت عيناه فوقي بكل ثقلهما كما يسقط الموت.

حين سألني السؤال انفتح فمي كأنما فم شخص آخر، نطق الإجابة السهلة البسيطة البَدَهيَّة دون تفكير، دون عقل، نعم يا أمي لم تكن الإجابة الصحيحة هي المطلوبة، هذا هو الدرس الأول في عملي حفظته في عقلي، كيف غاب عني؟ كيف كان السبب في موتي، لا أشعر بالحزن يا أمي بل بالفرح، بالراحة الأبدية والخلاص من العذاب، العبء الثقيل كان جاثمًا فوق صدري وبطني، نعم يا أمي استرحت من هذه الدنيا الكئيبة، أغادر هذه الدنيا إلى غير رجعة، لكن الكارثة يا أمي، أنني رغم هذه الراحة وأنا أغادر الدنيا لا زلت أضع التلفون بجوار رأسي، أنتظره يرن، أنتظر صوتًا واحدًا يناديني قبل أن أموت:

«يا معالي الباشا الوزير.»

اغضبي ثوري ولا تستكيني

زوجها كان يزعق: أريد امرأة لا أريد كاتبة.

– أنت رجل وكاتب.

– رجل وكاتب نعم، امرأة وكاتبة لا.

– ما الفرق بين المرأة والكاتبة؟

استمر الخلاف بينهما عشرين عامًا. تكتب في الليل، تُخفي أوراقها في درج مغلق. جاءتني الزوجة تبكي، قلتُ لها: تُمارسين الكتابة كأنها عادة سريَّة؟

– وماذا أفعل؟

– كاتبة يعني شجاعة، لا تخافي دفع ثمن الشجاعة، زوجة مُحِبَّة نعم، بشرط ألا تقتلي نفسك المبدعة، تعيشين مرة واحدة، ادفعيها بقوة، تصبحين جديرة بالكتابة، عيشي بكل كيانك، امرأة وكاتبة وكل ما عندك، وإلا فما معنى الحياة؟ أن تفقدي شجاعتك أسوأ من فقدان ساقك، تخيَّلي نفسك تسيرين بساق واحدة أو بعكاز من الخشب! التخفِّي يعني الخوف، مِمَّ تخافين؟ الطلاق لا يُخيف امرأة مثلك تملك نفسها وطعامها ومسكنها.

– هل الكتابة تتناقض مع أنوثة المرأة؟

– هذه أسئلة عفى عليها الزمن، تتكلَّمين بلغة جدتي، مفتاح شخصيتك يكمن في كلامك، كانت جدتي تكتب بالليل وتُخفي الأوراق في درج مُغلق حتى ماتت دون أن تنطق، لم تترك وراءها أثرًا أو كلمةً واحدة.

– هل أنا امرأة متخلِّفة؟

– وماذا يعني التخلُّف إلا إخفاء مشاعرك القوية، ما يغير العالم المشاعر القوية وليس الفاترة الباردة، الثورة مشاعر جامحة، الكتابة مشاعر جامحة، في غياب المشاعر الجامحة تصبح الحياة بلا معنًى ولا شكل، لا أقول لك اركبي حصانًا مثل دون كيشوت

وناطحي السماء، لكن عليك ألا تستكيني وتخافي وتكتبي في الخفاء، كتابك سيكون عظيمًا لو امتلكت الشجاعة، كوني مقاتلة لتكوني جديرة بالكتابة، الكتابة كالحياة دراما قوية، فيها دموع ودم، كوني كاتبة وامرأة لا تناقُض، حياة المرأة دراما لا تجد مَن يكتبها.

– نعم.

– لا يكتب عن المرأة إلا الرجال، أغلب الكتب عن النساء تحمل أسماء الرجال، شيء مؤسف، كل شيء يحمل أسماء الرجال حتى ما يخرج من بطون النساء، شيء مضحك ومُخزٍ.

– عندي مخاوف تراكمت خمسة آلاف عام، وتجمَّدت كالجدار داخل نفسي.

– اكسري الجدار، حطِّميه لتُطلقي سراح نفسك.

– أخاف أن تتحطم نفسي معه.

– نفسك لن تتحطم، هذا وهم، أوهام كثيرة مفروضة علينا، اكسريها، تخلَّصي منها.

– كيف؟

– أخرجي أوراقك من الدرج، انشريها على العالم، إن غضب زوجك دعيه يغضب، إن جاءتك ورقة الطلاق بالبريد ضعيها في القمامة، افتحي درجك المغلق للهواء الطلق، الهواء الطلق يأتي دائمًا مع الطلاق، التشابه في الأحرف يكشف المعنى والشكل، غامري باللغة تأتيك اللغة، ادفعي حياتك تعود إليكِ حياتك أجمل، اقتحمي المجهول، لا مستحيل في الكتابة، كوني كاتبة مرموقة، لا تكوني الجندي المجهول، لا أحد يعبأ بالمجهولين، اغضبي من العالم وثوري، الثورة تجعل الإنسان جميلًا، أظهري نفسك وأسرارك للملأ، لا تخجلي من جسدك وعقلك، ارفعي رأسك قولي أنا امرأة وكاتبة وكل ما أريد أن أكون، أنا من سلالة حواء وإزيس ومعات، إلهات المعرفة والحكمة والعدل.

لولا ثورات النساء في التاريخ ما تحرر العبيد، لا يحرر الطفل من عبوديته إلا أمه، لا تحرر الرجل من بدائيته إلا امرأته، لا تحدث الثورات في الخفاء، الثورة والكتابة كلتاهما لا تعرف السرية، حطمي قفل الدرج واكتبي في النور.

اغضبي وثوري ولا تستكيني.

لم يعد يراها

حرَّكت رأسي نحو جسده الممدود فوق الأسفلت، يدي تحاول الامتداد لتغطيه، المسافة بيني وبينه تزداد اتساعًا، شفتاي تتحركان، أحاول أن أناديه، اسمه يهرب، كل شيء يهرب بعيدًا، لا تصل يداي إلى حقيبتي المُلقاة على الأرض، تبتعد الحقيبة ومعها الأرض، وجسده الممدود يبتعد، أفتح فمي لأتنفس، لأنادي على أمي.

كنت طفلة بالأمس، كم سنةً مرَّت؟ كنت في ربيع العمر. أنام وأحلم وأصحو أغني، أحاول النهوض وتغطية جسده، العُري مُخيف، منذ الطفولة أخاف العُري ... العورة.

يدي مُعلَّقة في الفضاء، بشرتي خشنة مُبقَّعة، بأعقاب سجائر محروقة، كانت بالأمس ناعمة، أتركها في يده يُلامسها بشفتيه، يربت عليها بحنان الأم، أمد يدي لأغطيه، لا أريد للعيون أن تراه عاريًا، كان مختلفًا عن الناس، لا شيء فيه يُخجلني، عام كامل، اثنا عشر شهرًا في فراش واحد، لم أرَ له عورة.

تقاطيع وجهه غاصت في عُمق رأسه، عيناه مربوطتان بشاش أبيض، لا تعرفه إلا من عينيه، رجل غريب لم تره من قبل، إلا الوحمة الصغيرة تحت حاجبه الأيسر، بشرته بلون البشكير الأبيض، يُشبه وجه أبيها بعد موته، العُري أيضًا متشابه، مرة واحدة فقط رأته في لحظة خاطفة تشبه ومضة برق، كان راقدًا فوق ظهره، شخيره خافت منتظم مثل الساعة، كانت في السابعة من عمرها، لا تستطيع النظر إلى عورة أخيها الأصغر.

أرادت أن تزحف بجسدها على البلاط، أرض الأسفلت مُبلَّلة بسائل ليس الماء، لا تقوى على فتح عينيها، لا تستطيع رؤية الدم، هل انزلق وهو يجري نحو الثورة؟ لم تكن قدمه تنزلق، وإن انزلقت لا يسقط، وإن سقط ينهض في لمح البصر دون خدش، كم ليلة مرَّت منذ الليلة الأولى!

أحاول أن أكتب عنها وعنه، وجهي ناحية الكمبيوتر، ظهري إلى الحائط، أصابعي تتحرك فوق الحروف ببطء، ضوء شاحب يتسلَّل من شقوق الشيش، الساعة السادسة صباحًا.

مدينة القاهرة تنفث «الصَّهد» في الصبح، تتنفس دخانًا ملوثًا، تنز عرقًا مُسمَّمًا، له رائحة الحزن، هل أجهضوا الثورة منذ الليلة الأولى؟ اختفى الأصدقاء والصديقات، إنه صيف العام.

سكتة في القلب مفاجئة داخل السجن، جلطة في المخ مُباغتة أثناء الطريق، طعنة في الظهر بيد رفيق، تتوالى الأكاذيب، يزداد الإيمان بالله والقضاء والقدر، تجاوز النظام حدود عمره الافتراضي، هل ورث جهاز المناعة ضد الفناء؟ الحامض الوراثي والجينات أم الموت حيوان يهرب من الجبناء؟ أصبحت الشجاعة مرضًا والخنوع هو الشفاء، الجوعَى على الأرصفة، وشباب عاطلون، عُمَّال مطرودون، وثوار مخطوفو العيون، وفوق المقاعد المتحركة مُعاقون، وأمهات مُطلَّقات، وأطفال يرضعون، وبيوت تسقط فوق سكانها وهم نائمون، يحلمون برؤية الرحمن من بين الجفون!

مرَّت السنة الكاملة بجرَّة قلم، في الساعة السادسة صباحًا، انفتحت البوابة الضخمة العتيقة، أزيز حديدها الصدئ يُشبه الأنين، عمرها ألف عام وأكثر، منذ عهد الجواري والعبيد وسلاسل الحديد، خرجت الشابة تحمل صُرَّة ثيابها تحت إبطها، لا شيء في ملامحها يُلفت النظر، قامتُها متوسطة، لونها متوسط بين البياض والسُّمرة، ترتدي نظارة طبية، تمشي بخطوات حذرة، تتوقف عاجزةً عن اجتياز الشارع، السيارات تمرُّ كالبرق، أضواؤها تؤلم عينيها، تخشي أن تسقط تحت العجلات، كانت خطوتها سريعة، تجتاز الشارع تقفز فوق السيارات، تطير في الهواء تسبق القطط والكلاب البوليسية.

تخلع النظارة وتمسح عنها العرق، منذ الطفولة ترتدي نظارة، ورثت النظر عن أبيها، أرادت أن يكون لها أب آخر، قوي البصر، حي الضمير، لا يخون أمها في السر، أدارت رأسها إلى الخلف، المبنى الضخم نوافذه مسدودة بالقضبان، جدرانه سوداء تغرق في الضباب، تعلوها الأسلاك الشائكة المكهربة، تجمد فوقها عصفور مات. شبابها هل راح؟

تفرك عينيها من تحت النظارة، لم يكن في انتظارها أحد عند البوابة! أمها مريضة في الفراش، تركت أهلها من أجل أبيها، تركها أبوها من أجل نفسه! تصحو على صوت السجَّانة، صحن الفول يطفو فوقه سوس صغير أسود، لبابة الرغيف ينام فيها دود دقيق أبيض، وكوب شاي له طعم التراب.

«صباح الخير يا بنتي.» ترن الكلمة في أذنها، بنتي؟ كتلة اللحم الممزقة على الأرض! في أنفها تراب، لا تعرف الليل من النهار، وجه السجَّانة أو أمها؟

تنتظر طويلًا عند إشارة الضوء تتأمل الناس، يسيرون في إعياء وهم نائمون، أو يُسرعون في ذُعر يُهرولون، شابة تجري نحو شيء يُشبه السعادة، حُلم تريد تحقيقه، شاب يُحبها، ثورة في انتظارها، كانت مثلها منذ عام واحد، يشتعل النور الأحمر، تتوقف السيارات، تجتاز الشارع بخطوة بطيئة، لا شيء يدفعها للسرعة، لا أحد ينتظرها إلا أمها المريضة، أبوها مع عروسه الجديدة، لا تعرف عنوانه، يدق الجرس، تُطل أمها من فوق الوسادة، تقفز من السرير «بنتي حبيبتي.» تحوطها بذراعيها تذرف الدموع في صدرها، تدور في غرف البيت تبحث عنه، صورته في ميدان التحرير بجوار السرير، عيناه تلمعان بضوء الشمس، اتجهت أمها إلى المطبخ.

– «لازم جعانة يا حبيبتي.»

في السرير وهو نائم همست في أذنه: «وحشتني يا حبيبي.»

– «وانتي كمان يا حبيبتي.»

مدَّت يدها وأمسكت يده، راقد على ظهره إلى جوارها، يحاول أن يفتح جفونه ليراها، جفونه مفتوحة عن آخرها، لم يعُد يراها.

لوركا ... عُرس الدَّم القادم

الإبداع الحُر ثمنُه باهظ، قد ندفع حياتنا من أجله، ونموت واقفين مرفوعي الرأس نتحدَّى العالم، لكن مهما ارتفع ثمن الإبداع الحر حتى الموت، يظل قليلًا بالنسبة لما نحصل عليه من لذَّة ومتعة وسعادة.

أغلب الناس يجدون اللذة والسَّعادة في المال أو السُّلطة أو الجنس أو الشهرة أو البنين والبنات والأحفاد والحفيدات، القليل النادر يُضحِّي بكل ذلك من أجل الإبداع الحر. هذا القليل النادر من المبدعين والمبدعات هم الأمل والثقة، ولديهم القُدرة على بناء عالم جديد أكثر حريةً وعدلًا وكرامةً.

يمنحنا إبداعهم الحر المتمرِّد قوةً وطاقةً لا محدودة على العمل والفرح، تتبدَّد سنوات القهر والنفي والسجن والتشرُّد، مع لحظات الاستمتاع بما يُبدعون، صُحبتهم أيضًا تمنحُنا الصداقة النادرة والحب والجمال غير المألوف، نلتقي بهم في المؤتمرات في الوطن وخارجه، قد لا نلتقي بهم إلا من خلال أعمالهم، وما تركوه لنا من إنتاجهم الأدبي أو الفني أو العلمي.

الشاعر الإسباني «لوركا» دفع حياته كلَّها من أجل إبداعه الحر، اسمه الكامل «فيديريكو جارسيا لوركا»، يفخر به الشعب الإسباني وشعوب العالم أكثر من كل الملوك والرؤساء والأباطرة.

كنت في الخامسة من عُمري حين سمعت أمي تصيح بحزن: «لوركا ضربوه بالرصاص.» تصوَّرت أن لوركا رجل من عائلتها، وأن البوليس قتله كما قتلوا الآخرين في المظاهرات، كان ذلك عام ١٩٣٦م. سمعت أبي يحكي عن المظاهرات في الشوارع، رأيتهم في شارعنا «محرم بك» بالإسكندرية، يسيرون غاضبين يهتفون: «تسقط الحكومة ... يسقط الإنجليز.»

في مدرسة حلوان الثانوية، في الخامسة عشرة من عُمري، عام ١٩٤٦م بدأت أعرف لوركا، كانت «مسز جونز» مُدَرِّستنا للغة الإنجليزية تُحدِّثُنا عنه بإعجاب شديد. اغتاله بوليس «فرانكو» بالرصاص يوم ١٨ أغسطس ١٩٣٦م، كان يشارك في المظاهرات الشعبية من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة.

شارك الدكتاتور «فرانكو» في المذابح مع زعيم النازية «هتلر» في ألمانيا وموسوليني زعيم الفاشية في إيطاليا، والأنظمة الأخرى في أوروبا. انتصر فرانكو عام ١٩٣٩م على الشعب الإسباني بعد اغتيال لوركا والكثيرين من ضحايا الثورة الإسبانية الذين دُفِنُوا جسديًّا وأدبيًّا في إسبانيا، لكن أعمالهم الإبداعية ملأت العالم. مات «فرانكو» عام ١٩٧٥م، وجاء «خوان كارلوس» ملكًا لإسبانيا، سمح ببعض الحريات السياسية والأدبية، لكنها ظلَّت محدودة بحدود الحكم الملكي الطبقي الأبوي، وظل ضحايا الحرب الأهلية، منهم لوركا، في قبورهم أو بيوتهم أو منافيهم.

زرت إسبانيا كثيرًا خلال العشرين عامًا الماضية، وشاركت في عدد من المظاهرات الشعبية في مدريد وبرشلونة وغيرهما من المدن، وفي إقليم الأندلس في الجنوب، حيث وُلِدَ وعاش لوركا، أكبر المناطق الزراعية في إسبانيا، قاد الفلاحون والعُمَّال الفقراء الثورة في الأندلس ضد الإقطاعيين في القرى منذ فرانكو، ويواصلون الثورة حتى اليوم ضد الحكم الرأسمالي الاستغلالي، الذي أدى إلى الأزمة الاقتصادية التي تعصف بإسبانيا منذ ثلاث سنوات وتشتد الأزمة بعد إجراءات التقشُّف الاقتصادي، التي أصابت الفلاحين والعاطلين والفقراء أكثر من غيرهم.

لهذا يتجاهل الإعلام الرأسمالي الإسباني والعالمي ذكرى مقتل الشاعر الإسباني العظيم لوركا.

كلما تذكَّرت حياة لوركا أدركت أن ثمن الإبداع باهظ، لا يدفعه إلا المخلصون والمُخلصات لإبداعهم الحر الصادق العميق.

لا نتوقَّع أن يكون كل مبدع قادرًا على التضحية مثل لوركا، مهما كان الإنسان قويًّا وصامدًا فهو فرد واحد يواجه أنظمة فاسدة تملك المال والسلاح والإعلام.

حفاظًا على سلامة القِلَّة المُبدعة علينا تنظيم أنفسنا في حركات محلية وعالمية، يُمكنها التصدِّي جماعيًّا للأنظمة السائدة بأقل الخسائر.

حركة الإبداع الحر في مصر والعالم

هل يمكننا تصوُّر أن الشمس لن تطلع غدًا؟

وإذا لم تطلع ماذا نفعل؟

يؤمن أغلب الناس أن الشمس ستُشرق غدًا وإلى الأبد، لكن الحقيقة العلمية تقول إن الشمس كائن حي له عُمر مثل الإنسان والحيوان.

أطرح هذا السؤال لتحفيز العقل على التخيُّل والإبداع، ونزع غشاوة الطمأنينة عن نفوسنا، وتدريب عقولنا على الشك في الأشياء التي نظن أنها ثابتة إلى الأبد، الشك ضروري للتفكير المبدع، لا إبداع دون حرية الشك، العقل الناقد الشجاع أساس الإبداع في العلم والفن وأي مجال.

الحياة مُتغيِّرة، ينقلب الفرح حزنًا دون أن نتوقَّع، تُفاجئنا الأحداث فيُصيبُنا الفزع، لا نتوقَّع الكذب أو الخيانة مثلًا، نشعر بخيبة الأمل في الحياة والناس، نتصور أننا خُدِعنا، والحقيقة أننا لم نُخدَع، بل كُنَّا جُهلاء بتغيُّرات الحياة والناس، لم نتعلَّم الشك فيما يبدو ثابتًا أو التنبؤ بما سيأتي غدًا، بل العكس نحن نُربَّى على اليقين الثابت، وعدم التنبؤ بالمستقبل، المستقبل هو الغيب، عِلمه عند الله.

يمنحنا اليقين راحة نفسية مؤقَّتة وكسلًا عقليًّا دائمًا، اليقين يُجمِّد العقل عند حقائق ثابتة في كل مجالات العلم والفن.

الشمس ستُشرق غدًا بغير شك، هذا اليقين يمنحنا قوة نفسية ندافع بها عن أنفسنا ضد التغيُّرات، لكن هذا اليقين «سجن» يعتقل عقولنا داخل حدود المألوف القديم.

كل ما لا نتوقَّعه مُفزِع، لا نرى الأبعاد المتعدِّدة للحاضر والمستقبل والحياة والناس، ندافع بالرُّوح والدم عن نظرتنا الأُحادية ضد الأبعاد الأخرى للحقيقة.

نتصور أننا امتلكناها، نُصبح سُجناءَها «الحقيقة»، نغرق في الغرور والجهل وتضخُّم الذات، مع تزايُد التخصُّص والسلطة والثروة.

ينفصل طبيب الكبد (مثلًا) عن الحياة، بسبب التخصُّص وأُحادية الرؤية يرى الكبد منفصلًا عن الأعضاء الأخرى، والجسد منفصلًا عن النفس، والفرد منفصلًا عن المجتمع، والوطن منفصلًا عن العالم.

يعجز العلماء والسياسيون والخبراء عن حل المشكلات الكبرى محليًّا وعالميًّا، بسبب أُحادية الرؤية، والتخصُّص القائم على الفصل بين الأشياء.

في الجامعات المبدعة أصبح طلبة الطب يدرسون الموسيقى والأدب والفلسفة والسياسة، مع التشريح وعلم النفس والبيولوجيا، ويدرس طلبة الفنون علوم التشريح والفيزياء والكيمياء إلى جانب الأدب والفن والموسيقى.

لا يفصل الإنسان الطبيعي بين نصفه الأعلى ونصفه الأسفل، أو بين جسده ونفسه ورُوحه وعقله وعمله ومشاعره، هذا الفصل التعسُّفي مفروض بالتعليم والفِكر السائد في بلادنا والعالم.

نعيش في عالم واحد، مشدود أكثر نحو القهر السياسي الديني، قائم على العنف والتفرقة بين البشر على أساس الجنس والجنسية والطبقة والدين والعرق وغيرها، يُرسِّخ نظامه التعليمي هذه التفرقة في العقول والنفوس، يعلب الفكر الأُحادي دورًا في التجهيل وتجزئة المعرفة، يفرض الطاعة والتقليد واليقين بدلًا من الإبداع والتمرُّد وحرية الشك.

تقوم الحياة الواقعية على الشك والاحتمالات المتعددة والاختيارات المتنوعة، يرتكز الفكر الإبداعي على النقد والحدس والتخيُّل والتنبؤ، نفاجأ كل يوم بغير المتوقَّع، نجرب كل يوم أشياء جديدة، نكتسب عبر التجارب آفاقًا أوسع في السلوك والتفكير.

تحتاج بلادنا لحركة جديدة للإبداع الحر، تربط بين العلم والفن والفرد والمجتمع والوطن والعالم، لم يعُد هناك فاصل بين المحلي والعالمي.

بدأنا ثورة مصرية انتقلت إلى الغرب والشرق، فلماذا لا نُبادر بحركة إبداعية جديدة في مصر والعالم، تواكب الثورات السياسية، التي عجزت عن تغيير الفكر القديم، أو بناء فكر جديد قائم على الحرية والعدالة والكرامة؟

هنداوي